الهوية الآسنة واللسان الواهي

في الثقافة العربية الحديثة

د/ عبد القادر فيدوح ـ جامعة قطر

اعتلال الهوية/ الفضاء الإشكالي

لعل التغير فى مسار التاريخ الحديث، أو ما يطلق عليه بعالم ما بعد الحرب الباردة، أصبح يتكون بخلاف ما كانت تحكمه الهويات الثقافية للأقطاب والشعوب المتنوعة فى الحضارة الكونية، بوصفها هويات حضارية متماسكة، وهو ما أشار إليه كثير من الباحثين وبخاصة صموئيل هنتنغتون Samuel Phillips Huntington فى كتابه: **صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي**، عام1996، ومن قبله فرنسيس فوكوياما Francis Fukuyama ، وغيرهما من الباحثين الذين أشاروا إلى صدام الحضارات، وإعادة رسم هويات هذه الحضارت، منها على وجه الخصوص(الصينية، واليبانية، والهندية، والعربية الإسلامية، والإفريقية، وأمريكا اللاتينية، بما فى ذلك الهوية الغربية نفسها) وأن ما ستئول إليه هذه الحضارات هو أزمة هوية كونية ـ بحسب تعبير Huntington ـ يبحث فيها الفرد ـ أيا كان، وأينما كان ـ عن هويته من خلال سؤال مركزي: كيف يمكن تأكيد هويتي فى ظل هذه الأرجاء اللامحدودة لفضاء المعنى المنفلت، وإفلاس الحقيقة؟ وهل وجودي الثقافي مرهون بتفردي وانفصالي، أم مقرون بصياغة هوية الآخر؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي هزت كيان الذات فى هذا الكون، وأثارت فضولها فى السعي إلى الرغبة فى حماية نفسها من مجهول "تصنيع" الهوية المعلبة، وتصديرها.

ومن هذا المنظور أصبحت الذات فى أمس الحاجة إلى تعزيز هويتها فى الوجود، وهذا يعني أن محاولة تأكيد صون التأصيل المنجلي أكثر فى القيم المكتسبة، بات ضروريا فى مقابل المد الثقافوي culturalisme فى افتتانه بتفصيل ثقافة جديدة وتفننه فيها؛ لخلق هوية جديدة، يحكمها الاستهلاك بالتجارة المربوطة بتخطي الحدود، وتسويقها ـ بخاصة ـ إلى الهويات المحلية، من فضاء منتوجات وحشية الرأسمالية الجديدة عبر الحاويات conteneurs وشعارات الصورة الدعائية المدهشة التي أصبحت تهدد كيان الثقافات المحيطة Les cultures périphiriques بشكل عام، وحولت كل شيء إلى ثقافة تسلية، مدفوعة الثمن، وخلق تجارة ثقافية بوصفها شبكات ذات مغزى، موجهة إلى الثقافة الفرعية الدونية sous-culture بغرض خلخلة هويتها، "وعند هذا المنعطف تنجز الرأسمالية انتقالها إلى رأسمالية ثقافية تامة النضج، مستحوذة ليس على المعنيين بالحياة الثقافية والأنماط الفنية للتواصل التي تنقل نتاجهم وحسب، بل على التجارب الحياتية أيضا، وهو ما أشار إليه ألفين توفلر Alvin Tofler حين قال:"إن صانعي التجارب سيشكلون فى نهاية الأمر قطاعا أساسيا إن لم يكن القطاع الأساسي للاقتصاد...(وعندها) سنكون أول جيل فى التاريخ يستخدم التكنولوجيا المتقدمة لصناعة أكثر المنتوجائت سرعة فى مرورها، رغم أثرها الدائم، ألا وهي التجارب الإنسانية"(1)، وهو ما ولد أزمة

هوية عميقة فى الذات المرتهنة بالظلامية فى خضم تراكم الإحباطات، والهزائم، والانتكاسات، وكثرة العلل، وزرع الفشل، من منظوماتنا الثقافية، والتعليمية المسئولة عن خلق أجيال مكسورة، ومنصهرة فى ثقافة مشوهة وهجينة من دون مسوغ أو شفيع، " وفى هذا الجو من الإخفاق الحداثي من جهة، وانكشاف الهامش المابعد حداثي من جهة أخرى، جاءت الهويات؛ وهي معنى ثقافي جديد، وهو جديد كمصطلح، وجديد كمعنى، ويمكن حسبانه على ما بعد الحداثة كأحد سماتها الأساسية.(2)

ويعد الحديث عن موضوع الهوية حديثا ملتبسا إلى حد ما، ومفهوما مفتوحا، بالنظر إلى ما تحمله دلالة هذا المصطلح من تشعب فى الطرح، وتنوع فى الانتماء، سواء من الناحية الدينية، أو القومية، أو العرقية، أو الاثنية، أو حتى فى بعض الخصوصيات اللغوية والمعرفية، أو فى أنماط الحياة، إلى غير ذلك من الظواهر التي تربط الإنسان بالانتماء المزدوج فى هويته المركبة، بما فى ذلك عدم الانسجام داخل كل فرد فى خياراته المتعددة - أحيانا - وفى خصوصية انتماءاته المضطربة، والمثقلة بالهواجس والريبة فى أحايين كثيرة.

ووثبا على الجهود المبذولة لمفهوم الهوية من المفكرين والفلاسفة، كل بحسب رغبته فى الدفاع عن انتمائه، أو طريقة تناوله لهذا الموضوع العسير منذ مقولة سقراط الفلسفية الشهيرة [اعرف نفسك بنفسك]، ومنذ طرح سؤال الفكر اليوناني عن ماهية الوجود، وتحديد الحق على أنه [ما يكون هو ذاته بما هو ذاته]، ومرورا بالصورة الروحية التي يقبض عليها الإنسان لمعرفة ذات الجلال فى ذاته، من خلال القول المنسوب إلى الحديث: **"من عرف نفسه عرف ربه"**، وصولا إلى البحث عن هوية الذات فى الفلسفة الحديثة التي نجمل رؤيتها فى مقولة هيدغر Heidegger:" كيف يجب أن نكون نحن أنفسنا، والحال أننا لسنا نحن أنفسنا؟ وكيف يمكن لنا أن نكون أنفسنا، دون أن نعرف من نكون، حتى نكون على يقين من أننا نحن الذين نكون" (3).

وتجاوزا لتلك الانزياحات العديدة التي مر بها مصطلح الهوية انطلاقا من " [هو] نحوي إلى [هو] منطقي، إلى [هو هو] أنطولوجي، ومن ثم إلى [هوية] أنطولوجية فى الفلسفة العربية الكلاسيكية، إلى [هوية] أنثروبولوجية وثقافية فى نظام الخطاب السوسيولوجي - التاريخي - اللاهوتي المعاصر"(4).

وثبًا على كل ذلك، فإن رهاننا فى هذا المقام ينبني على تناول موضوع الهوية من منظور إمكان معرفة الذات، بوصفها مصدرا للتواصل مع الوجود فى جميع أشكاله.

وإذا كانت الهوية بهذا المنظور الذي رسمه الإرث الفكري عبر التاريخ؟ فكيف استطاع المنظور الحديث نقل هذا المصطلح من معناه الأنطولوجي إلى معناه الأنثروبولوجي الثقافي، والدراسات الثقافية على وجه التحديد؟ وكيف يمكن للبحث أن ينمي هذا المصطلح وفق ما تستجيب له هيمينوطيقا الهو Heméneutique de Soi، بكل ما يحمله المعنى من فضاء تأويلي يتناسب مع راهنية المسار الفكري، والهم الذاتي، والمعطى الايديولوجي؟ وإلى أي مدى استطاع مصطلح الهوية أن يحرك الفضاء الإنساني من هواجسه بوصفها منبعا للرؤيا، وخوضا فى التجربة؟ وقبل ذلك ما الذي يعنينا من الهوية

بعد تداخلها مع مجموعة من الخطابات والمفاهيم الحديثة، والتواء بعضها فى بعض؟ وكيف يمكن أن نفيد من مفهوم الهوية فى صيغتها القديمة" الديكارتية"، أو من هوية السؤال الفلسفي: من نحن؟

لعل فى كل هذا، وغيره من الأسئلة، ارتأينا أن نستقصي مسار الهوية من منظور "كونية الاتصال" فى ظل المجتمع المعلوماتي و"التكنولوجيا الرقمية"، وعلاقتها بالذات، وبالآخر، وكيف تعيد تأسيس نشاطها فى النص، وقبل ذلك كيف تصبح اللغة علامة دالة عليها، وفق فاعلية الرؤيا وفاعلية الإنجاز. وبتعبير أدق كيف تنخرط الهوية فى الواقع المعمول؛ حتى يتحقق فعل الذات فى صلتها بالوجود المتعدد الأنساق، ويتحقق فعل المطابقة بوصفه معيارا لكل أنماط الحياة اليومية فى ثنيات متعددة تحدد علاقة الذات بالتأمل بصرا وبصيرة. وفى هذه الحال سوف نميل عن جادة من ينظر إلى الهوية تاريخيا، أو فلسفيا، أو اجتماعيا، أو أنثروبولوجيا ثقافيا، وأبعد ما نكون مع من يفسر الأسباب والدوافع المحاطة بمعاني الهوية فى جميع أشكالها المعرفية خارج نطاق الذات فى علاقتها بالكون وبالآخر، وتواصلها مع المحيط. كما نحاول أن نبحث فى مساعي الهوية عن المساهمة فى إعادة بناء مسار الذهن الذي باتت ترسم ملامحه مستجدات العصر ومستلزمات" إعادة بناء الافتراضات الأولية الكليّة للمعايير والقيم"(5)، هذه الافتراضات التي تقودنا إلى البحث عن الذات فى منظورها الفينومينولوجي.

وفى خطاب أكثر حداثة، وأكثر تجاوبا مع العصر أصبحت لدينا هويات متعددة تتداخل مع مجموعة من الحساسيات والمفاهيم والأذواق، وأكثر من ذلك " أصبح لدينا خطاب نفسي للذات، خطاب يبدو شديد الشبه ـ بالمرجعية السابقة ـ حيث فكرة الاستمرارية، والاستقلال الذاتي، والجدل الداخلي العميق النامي والمتفتح للشخصية. نحن لم نكن أبدا هناك، لكننا دوما فى طريقنا إليها(إلى هويتنا)، ومن المفترض أننا عندما نصل هناك، سوف نعرف، أخيرا ـ وبمنتهى الدقة ـ ماهي هويتنا؟ من نحن، تحديدا"(6).

وإذا كانت الفلسفة لا تنتج حقيقة، أو تبحث عنها، فإن نظيرتها "الهوية" هي ملتقى وسيط كل المعارف، تزيد من تأكيد حقيقة القيمة فى الذات، غير أن بناء كل قيمة ثقافية مرهون بالتحول وفق ترتيبات خاضعة بالضرورة لنتاج الثقافة الجديدة، أو داخل صناعة الثقافة العالمية فى تأثيرها الفعال على الثقافة المحلية، بما فى ذلك ثقافة الأطراف؛ الأمر الذي يجبر الثقافة المحلية على الانعطاف عن كل ما هو جوهري فيها من ثوابت على النحو الذي قنن له أفلاطون ـ مثلا ـ حين أنكر تغير الأشكال الجوهرية، فى مقابل التصور الوجودي الخاص للهوية التي تحمل سمات التغير بشكل مذهل وبلا كابح، فى المدة الأخيرة، بعد أن أصبح "المشهد المدهش" يصنع بناء هوية ـ بل هويات ـ جديدة قوامها "أن الفورية المباشرة للأحداث، والطابع الحسي للمشاهد ...هي المادة الخام التي يتشكل منها الوعي"(7).
وفى هذه الحال، فإننا معنيون فى هذا البحث بالكشف عن مدى تغير الهوية بالنظر إلى المؤثرات المتنوعة التي غالبا ما تميل إلى تجريد المجتمعات من القيم وتقوض أنظمتها الثقافية، كما أننا معنيون بالكشف عن مدى انحسار مساحة الوعي لدينا فى تعاملنا مع الهوية من منظورها المعرفي الذي يدل على معنى الذات Sujet المتواصلة.

وبما أن طبيعة الذات متعددة المشارب، ومتنوعة المآرب فإن ميولها ـ غالبا ـ ما تمنحنا الإحساس باكتناه ما بداخلها من عمق فى التصورات، بوصفها مصدرا ـ مرجعيا ـ للتأمل، وما ينتابها من شعور يغذي الوجود النفسي بما ليس على قيد ولا وثاق، أو فى توقها إلى الوجود الأسمى، أو تواريها فى أحلامها المجهضة، أو من خلال ظروف قد لا تكون نابعة من اختيارها، سواء تعلق الأمر بالذات الفردية [المستلبة]، أم بالذات الجماعية [المتشظية]، حتى أنه " لم يعد ممكنا أخذ استلاب الفرد بالمعنى...الكلاسيكي؛ إذ إنه لتكون الذات مستلبة، يجب أن تكون أولا متماسكة متجانسة، وليس مجرد أجزاء أو شظايا، كما هي فعلا. وقدرة الفرد واقعيا على متابعة أموره فى الزمن أو تفكيره بمستقبل له، أفضل بكثير من حاضره ومن ماضيه، إنما هي ممكنة فقط بفضل شعوره بمركزية ذاته أو هويته"[8] الفردية فى نزوعها إلى التحرر مما تراه قيدا، فى ظل وجود تحكمه الهشاشة فى كل شيء، وأصبح يفقد مكوناته المكتسبة، ويحاول أن يستبدل قيم الحاويات conteneurs وثقافة "رمي كل شيء" بحسب تعبير Alvin Tofler بالثقافة التليدة، والقيم النبيلة، رغبة فى الوصول السريع، وبتوصيل خدمات المظاهر بوصفها قيمة مضافة للتحسينات على حساب خدمات المعارف والأفكار، كما لو أن تسويق الثقافة المعلبة التي تنظم وعينا بكل ما هو محسوس، أصبحت تؤسس لهويات جديدة، تحول كل ما هو هش وشكلي ـ وبما تحمله من دلالات السطوح ـ إلى هوية ثقافية جديدة متعددة، وغير متجانسة فى جميع هويات البشرية، بما فيها الهويات التي تدعي أنها عظيمة فى كثير من السرديات الغربية التي وصفها ستيوارت هول Stuart Hall بأنها لم تكن ثابتة وراسخة، " وإذا كان لتلك الهويات العظمى علاقة بهويتنا الثقافية والفردية، فإنها لم تعد تمتلك الفاعلية الاتصالية والبنائية، أو قوة الرسوخ التي كانت لها من قبل، بحيث تسمح لنا بمعرفة من نحن بوضوح، بمجرد أن نضيف مجموع أوضاعنا إلى العلاقة بهذه الهويات. إنها لم تمنحنا شفرة الهوية كما فعلت فى الماضي"[9]. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى الهوية الغربية، فما عسانا نقول عن هويتنا العربية الإسلامية التي بدأت تخسر استمرار تواصلها التراتبي من يقين الإرث المرجعي، ودخلت فى رهان مع اللامتناهي الذي يحاول أن يخلق بديلا لكل ما هو ثابت وقار، والدخول فى غمار المجهول بكل ما يحمله من صفات الغربة والغرابة، وحالة التفكك النيتشوي Déconstruction Nietzschéenne .

استلاب الذات/الهوية المخملية

يبدو أن الواجس خيفةً من التقلبات السريعة، أحدث شرخا فى مكونات الذات، وبنية الناص/العالم، إلى الحد الذي غير من المدركات الملازمة للمستجدات التي تقتحم كياننا، وسط محيط يتحول بسرعة فائقة، ويعطي ظهره للمبادئ اليقينية؛ الأمر الذي أسهم فى فقدان توازن هويتنا، بخاصة بعد أن أطلت علينا الألفية الثالثة باقتحام وعينا، ومحاولة إعادة تكوينه، بطريقة راديكالية Radical، تسعى إلى الوصول بكل ما تملك من وسائل اقتلاع جذري، وبسرعة، من منظور المصلحة والعقلية النفعية، وذلك بعد تدفق المعلومة الوافرة والمتراكمة، بخاصة المجلوبة، مما يطلق عليه بالمجال السايبري Cyberspace الذي بات يسهم فى توليد جيل جديد، تحكمه شبكات افتراضية عبر وسائل تكنولوجيا المعلوماتية، ويشكل جسرا لعبور أفكار تتجاوز مركز المكان المحدود، ويحول التصورات

الثابتة إلى تصورات متداولة. وقد باتت تأثيراته أعمق على البنية الأنطولوجية بتوسع المفاهيم والكيانات، ناهيك عن استثماره فى تنظيم شبكة بيانات المعنى Le Web sémantique، والربط بين العلاقات ذات المعنى بإشراك المتصفح، رغبة فى إنتاج المعنى الدلالي المراد له.

وقد أحدث هذا المجال ثورة فى فضاء المعلومات، ورجة عنيفة ـ تجاوزت هزة ثورة كوبرنيك Copernic ـ وصار العالم يسير" سيرا أعمى ما فتئت عجلته تزداد سرعة، ويحرك الكوكبة الفضائية [الأرض] أربعة محركات مرتبطة بعضها ببعض، وهي العلم، والتقنية، والصناعة، والاقتصاد الرأسمالي... وإن هذا المحرك الرباعي هو الذي يحرك كوكبنا الذي فقد توازنه... [وبالإضافة إلى ذلك] يمكننا أن نتصور [أن هناك] تطورا متصلا بالذكاء الاصطناعي وبالتنظيم الآلي يتيح للآلات تنظيم نفسها ذاتيا؛ أي الإصلاح الذاتي، وأخيرا التكاثر الذاتي الذي تنبأ به تورنك Turing "[10]. والذي أصبحنا نعيشه اليوم مع عالم البوابات الإلكترونية ومحركات البحث، والتحكم فى المواقع من خلال الشبكة العالمية (Le World Wide Web). وغيرها من محركات المجتمع الشبكي Réseaux sociaux ، وفى هذه الحال لا يمكن فصل النص/الواقع عن الكون، أو المتلقي عن الفضاء فى اتساع مداه الواقعي والافتراضي، وبهذا المنظور تكون معايير المعرفة والإبداع فى الساحة الثقافية قد تحولت إلى جذمور Rizoma من دون كابح، ومن دون توجيه سليم.

وإذا كانت فيزيائية الكون تستوجب الوعي خارج الصيرورة، وولوجه فى عالم السيرورة، فإن المسافة بين الصيرورة والسيرورة هي نفسها المسافة بين الأصل المشترك والفعل الذاتي الذي بات يعزز حب التملك، وسرعة الوصول، واللهث فى حب التنوع والتغير، رغبة فى البحث اللانهائي عن التجديد المولد، واستبدال الأصل الجديد بالأصل المشترك، أو بالمرجعية التي كانت تؤسس لعلاقة الإنسان بالقيم، فى مقابل حاجات الذات فى راهننا إلى التشدق بالمتميز، والميل عن جادة الصواب ـ بوعي أو من دون وعي ـ إلى تكوين هوية جديدة أصبحت تؤسس لعلاقة الإنسان بالأشياء، من منظور أن " الشيء ليس السبب السابق عليه، أو المكون له، بل فى الغاية التي وجد من أجلها، والغاية كامنة فى الشيء، وليست كالكسب الذي يسبق الشيء ويختلف عنه، فالعلة الغائية كافية بمعنى أنها تحقق هوية الشيء، تمنحه دلالته، أو وظيفته"[11].

ولعلنا ندرك أن موجة " المجتمع الشبكي Réseaux sociaux " بدأت تخلق أساليب جديدة لأنماط حياة جديدة، بعد أفول "النموذج" فى الهويات التقليدية، وصعود هويات جديدة يمكن أن نطلق عليها [البراديغم Paradigme] بوصفه نسقا ثقافيا يمليه استيعاب تجارب أنماط الحياة اليومية، وإعادة هيكلة هذه الحياة بحسب مستجدات العصر، يوحدها اهتمام مشترك فى رؤية مركزية هي السوق بنظامه الاستهلاكي، المربوط بتشتت الأذواق، عن كل شيء، عند الحاجة إلى أي شيء، وليس أدل على ذلك من مجمعات الأسواق الاستهلاكية المنتشرة كالجذمور فى مدننا " وفرط السوق هو بمثابة نواة لا تبتلعها المدينة الحديثة، فهو الذي يقيم مدارا يتحرك حول المجتمع السكاني، ويلعب دور مزدَرَع Implant لتجمعات جديدة كما تفعل أحيانا الجامعة أو المصنع... مصنع التركيب الآلي ذي التحكم الإلكتروني؛ أي المطابق لوظيفة أو لسلكة عمل غير مرتبطين بمحيطهما بالمطلق مع هذا المصنع، كما

هو الحال مع فرط السوق" [12] كأسلوب حياة جديدة، ينبغي الاحتذاء بمقتنياته ذات المواصفات الإشهارية، ومتابعة مستجدات الصرعات العالمية، فى آخر ما أنتجته الشركات المتعددة الجنسيات، ومجاراة لهذا النسق صار الجيل الجديد يتولى ابتكار معانيه عبر اكتشاف الرموز الجديدة.

يعد البراديغم ـ المقصود فى هذا المقام ـ تحديا أكبر لثقافة الاستهلاك ـ فى كل شيء ـ بعد أن تمرد على كل ما هو منظم، وموحد، ومنطقي، فى مقابل مستلزمات التواصل الشبكي من تدفق المعلومات، وخلق فضاء افتراضي، والملتمس الوصول باقل مسافة (زمانية/مكانية، ومادية /معنوية). ويعني ذلك استبدال تعظيم الذات، وانحلالها، بفقدان توحدها مع المحيط، وخلق براديغم مقابل أفول المرجعيات الأساسية الكبرى، وتعويض اليقينية بالنسبية التي ترفض تسليم رأي أحدهما برأي الآخر مهما تعززت أدلته، واستبدال انفلات المعنى بالسعي إلى المقاصد الغائية. وقد كان لثورة الاتصال والمعلوماتية الدور الكبير فى إحداث مجموعة من التحولات المترابطة، كلها، فى خلق فضاء افتراضي يهندس للوعي الجديد فى كل مجالات الحياة اليومية، وهو ما أثر تأثيرا مباشرا على الأنساق المعرفية التي باتت محكومة بالبراديغم، تتعامل معها المعلومة كمسلمة بحسب تعبير توماس كون Thomas s. Kuhn، فى كتابه "**بنية الثورات العلمية**" وأن كل شيء خارج البراديغم يعد مشكوكا فى نتائجه، وموضع مساءلة، انطلاقا من أن أي شيء يظهر فى الوجود يكون له أتباع، ويمكن أن يكون جزءا من البراديغم.

لذلك أصبح ما يقدمه السوق من صرْعات الموضة، المرهفة الحواس، نموذجا جديدا ينبغي تقليده، بوصفه خيارا جديدا، بديلا عن النموذج التقليدي، وجسرا بين الثقافات، يربط المحلي بالعالمي، والذات بالآخر فى تكوين ثقافة جديدة تؤسس لهوية جديدة، أو براديغم جديد؛ لإرشاد المستهلك/المتلقي إلى معنى اختيار ودلالات ما يعرض عليه من تجارب جديدة، العابرة للقارات. أضف إلى ذلك أن فرط السوق لم يعد مقتصرا على عرض خدمات وسلع، بقدر ما ظل يعرض أفكارا ودلالات، تجاوبا مع خلق نمط جديد، لهويات جديدة، وبثقافات مدروسة، تقوم على اعتبارات جمالية ذوقية؛ لإغراء المستهلك المرتبط بالعالم الافتراضي، وليس بالعالم الواقعي، وأن رغبته مشحونة بالاقتناء ـ حتى لو كان ذلك بومضة النظر ـ فيما يشاهده من رموز تحرك مشاعره التواقة إلى التجديد برؤية أفكار ما بعد الحداثة.

ومن هنا كان للمجمعات الاستهلاكية (السوق) التأثير البالغ على الثقافة المحلية، وبوابة لإشاعة الأذواق الجديدة، وإزاحة الحجب عن مشاعر قيم الحشمة، حيث كل شيء فى السوق يختلف عن متطلبات الجيل السابق. وقد لا نستغرب هذا الدور من السوق حين نعلم أن جميع أشكال التغيير تبدأ من تغيير الذائقة بجميع حواسها، ومنحها ما يليق بها من مطالب تفرضها المستجدات؛ الأمر الذي دفع نسق السوق إلى أداء دور المخلص، والمنقذ، لأحلام الشباب الوردية، وقد عرف السوق كيف يجمع بين الربح والتغيير الثقافي، وأتقن بمهارة مدروسة كيف يجذب إليه كل الأذواق.

وتعد ثقافة التسوق نمط حياة، خاصة حين نعلم أن [الإنسان يصنع السلعة والتسوق يصنع الحياة]، وبقدر من التأمل ندرك أن جيلا جديدا أصبح يتشكل على وجه الكرة الأرضية من ثمار عصر النسخ الآلي؛ إنه جيل "مجتمع المشهد" وهو المجتمع الذي عبر عنه جان بودريارJean Baudrillar بمجتمع (فوق الواقع، أو الواقع المتعالي Hyperréel) كونه يعيش الحقيقة التي تخفي عدم وجود الحقيقة، ويحاول أن ينفي الواقع الوجودي/ الملموس. وفى ظل هذا الواقع المتعالي الجديد ليس لنا إلا أن نستسلم لما تستحوذه علينا حالة التغير الشمولي فى جميع العلاقات الثقافية والمعرفية والاجتماعية والاقتصادية، وفى خضم ذلك لم يعد المجتمع فى عصرنا الحالي يعتمد على تعزيز الروابط، وتمكين الأواصر، وتوطيد النفوس على حب الخير، وتحقيق المنفعة العامة. أضف إلى ذلك أنه مع تنوع الخدمات تلاشت العلاقات، ومالت إلى طبيعة كل ما هو عابر، ولا عجب فى أن يصف جيرمي ريفكين Jeremy Rifkin فى كتابه" **عصر الوصول The Age Of Access** المجتمعات الحديثة بأنها باتت تقاس بالخدمات الترفيهية، وأن قيمتها تتوقف عند الرغبة فى سرعة الوصول بأي شكل من الأشكال؛ الأمر الذي غير مبادئها، وأتلف هويتها، وحول اتجاهاتها الثقافية إلى بوصلة أوقعتها فى معايشة الوهم، وإشباع الخاطر، العابر.

إن ما هو سائد فى حياتنا هو مصادرة القيم، بجميع أشكال هوياتها التقليدية، فى مقابل مبايعة السوق [المجمّعات]، وفاءً لإشباع الرغبة الجموحة فى الانقياد وراء الأهواء، بعد أن تحولت حياتنا إلى سلع، وأصبحنا مربوطين فيها بكل ما هو تجاراتي La commercialité.

وإذا كانت هذه الأسواق قد جلبت لنا ما لم يكن يتصوره العقل ـ قبل عقد من الزمن على أقل تقدير ـ من أحدث سبل الاتصال والتواصل، ووفرت متطلبات الرفاهية؛ لتأمين سعادتنا بفعل انتعاشها باستمرار، فإنها بالمقابل أصبحت مبعثَ قلق من هوس الاقتناء برغبة متلهِّفة، ومن دون رقابة، بما فيها الرقابة الذاتية، بعد أن صار التسوق ـ بثقافته ـ يتحكم فى حياتنا، ويجبرنا على تسلل أيادينا خفية إلى مصدر مدخرات وقت الحاجة؛ لإشباع مهمة الشراء المفرط ـ فى معظمه ـ حتى أصبحنا نقاس بمظاهر ما نملك، وليس بالكيفية التي تجعلنا نستجيب لحاجاتنا الضرورية.

ولعل المتأمل فى حياتنا الاجتماعية المضطربة، يدرك أن ثقافة الاستهلاك فى مجتمعاتنا العربية على وجه الخصوص، والجتمعات كافة، باتت تهدد هوية الشعوب، وتبدد حدود العلاقات الإنسانية، وتخلخل المقومات الاجتماعية، وهو ما قد يؤكد ـ بنظرة استشرافية ـ تمخضها لتلد كائنا بشريا غريبا فى أطواره، عجيبا فى أمزجته، قلقا فى تصرفاته، خاصة عندما يصبح السعي إلى "الوصول" هدفا، ونمط حياة، مع جيل الشاشات المرئية، والصورة الإشهارية، وهو ما أطلق عليه دفيد هارفي David Harvey بالتراكم المرن الذي أصبح فيه المجتمع يوصف بـ [رمي كل شيء]، ولعل " ذلك يعني أكثر من مجرد رمي سلع مستهلكة(وما يتبعها من تراكم فضلات)، بل هي أيضا القدرة على رمي القيم، وأنماط العيش، والعلاقات المستقرة بعيدا، ورمي الألفة مع الأشياء، والأبنية، والأمكنة، والناس، والطرائق الموروثة فى السلوك والكينونة.... ومن خلال مثل هذه الآليات (التي بدت شديدة

الفاعلية لجهة تسريع عائد السلع فى الاستهلاك) بدا الأفراد ملزمين بالتأقلم مع ما هو جاهز للاستعمال، جديد باستمرار، وآيل فى كل لحظة إلى الزوال".[13]

وإذا كان التسوق فى مجال الاستهلاك المادي مقبولا؛ لظروف حتمية، فإن ما هو غير مقبول، أن تكون ثقافة الشعوب بجميع مكوناتها سلعة مدفوعة الثمن نتسلى بها، بغرض تأمين الوصول السريع الذي من شأنه أن يغذي نشوة النصر بالتملك، والسعادة بالتميز ليس إلا(!..).

إن الفجوة الثقافية لجيل (البوابات WWW، أو كما يطلق عليه جيل دوت كوم dot.com) تصاحبها فجوة معظم مؤسسات المجتمع المدني ـ فى بلادنا العربية على وجه التحديد ـ وعلى رأسها الأسرة، بعد أن تمت مصادرتها هي الأخرى؛ لتندمج فى [الخارج] من مقصد السوق بجميع أطياف مكوناته، على حساب [الداخل] الذي كانت تراعي فيه هويتها. وبصورة أدق تحولت الأسرة فى علاقاتها من سند [الاعتبار] فى تعزيز تجربة العبرة والموعظة، إلى فصل العلاقات بعضها عن بعض من سند [الافتراض]، وهو ما أثر سلبا على نمط الخطاب الاجتماعي، ناهيك عن السلوك الثقافي فى خلق ذوق جديد، وأسلوب حياة جديدة.

ولكن، رب قائلٍ يزعم: وما عساك تقول فى هذا التطور الهائل بالأدلة القطعية لما نراه فى اتساع مدى ازدهار وسائل التنوع الثقافي، وما تثمره التكنولوجيا الرقمية؟ وهل لك أن تبرر أهمية المنفعة منها، من عدمها؟ أم أن عقولنا معميّة، وغير قادرة على تمييز الصالح من الطالح.

إن جميع الفرضيات الاحتمالية والحقيقية تشير إلى تشجيع تعميم الفائدة من وسائل تكنولوجيا المعلومات، وما تحدثه من تحول كبير لإنعاش الرأي العام وتوعيته، وإكساب الذوق الرفيع، وتنمية المهارات الثقافية، عند التعامل معها بما تهدف إليه المصلحة العامة، والفائدة المشتركة، والقيم المتبادلة.

الهوية الناعمة/إنتاج المعنى

إذا كانت الهوية التقليدية ترى أن البراديغم(هوية الجيل الجديد، ونحن فى هذا المقام لا نقصد الجيل التوليدي Generation génératif الذي يسعى إلى الخلق الإبداعي، وفق ما تمليه عليه القواعد اللغوية السليمة، وإنما نقصد ما يطلق عليه فى قاموس الشباب بجيل Y)[*] فى أنساقه الثقافية الجديدة، ثمرة معايير أفكار ما بعد الحداثة، الآخذة بالصعود فى كل مرافق حياتنا اليومية، وأنها تشوه الذوق الرفيع، وتعمل على عدم الوثوق بالمبادئ، فإن هذه الأخيرة ترى فى الأولى أنها متمسكة بالضمير الجمعي الواهي الذي لم يعد له مفعول فى الحياة الجديدة، وأنها لم تعد تقوم بدور الإنتاج الوظيفي فى علاقة الإنسان بالمحيط، وأن كل ما فى وسعها القيام به لا يتجاوز الالتزام بمعايير المثالية الضابطة؛ لذلك ينبغي ـ فى نظر أنصار البراديغم ـ إعادة بناء تكوين الركيزة الذهنية التي تستند إلى الافتراضات بوساطة اللسان فى حقيقته الاجتماعية بـ: [لغة تداولية] تنبثق من الواقع، ومن جميع الفضاءات العمومية التي تسع مدار المطالب بأفق مفتوح، وتُفرد بمضامين حياتية وفق توجيهات علم اللسانيات

الاجتماعية Sociolinguistics، بوصفه علما يعنى بتأثير المجتمع على اللغة، بخلاف اجتماعيات اللغة La sociologie du langage التي تعنى بتأثير اللغة على المجتمع.

وإذا كانت اللغة ـ بغاياتها، ومضامينها ـ ظاهرة إنسانية تواصلية، وعنصرا مهما من ماهية الإنسان، وموسومة بهوية ذويها، فإننا نعتقد أن كل ما عدا ذلك يعد انسلاخا من مرتكزات الهوية، وتحولا عن منزلتها، ومن سياقها الحضاري. إذا كانت اللغة بهذا المنظور لدى المتمسكين بالأصالة، فإنها فى سلوكيات أنساق الثقافة الجديدة على غير سمْت، ويعتقد أنصارها أنه ما دام كل نسق دال مرهون باللغة فإن تحولها مرتبط بمستعمليها، كون اللغة تعبيرا عن كل ما يصدر منا، وهو ما تتناوله الدراسات السيميائية بالتفصيل، انطلاقا من أن كل شيء دال بحاجة إلى لغة تعبر عنه، وهنا يشير رولان بارت Roland Barthes إلى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود مدلولات نسق، صور، أو أشياء خارج اللغة، بحيث إن إدراك ما تدل عليه مادة ما، يعني اللجوء قدريا، إلى تقطيع اللغة، فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة".[14]

إن فقدان الهوية اليقينية، أو التقليدية، فى ظل أنساق البراديغم، والبعد الثقافي الجديد، جعل الوعي التواصلي ـ الذي من شأنه أن يحقق الإجماع، والتفاهم، والحوار ـ ينحسر فى كل ما هو سريالي صوري، ينقصه النظام والمنطق، ومكبل بمصادرة الموقف، وضعف الصريمة، كما أخضع هذا النسقُ الجديد الوعيَ إلى المسلمات الواردة من تعدد الروافد، إما فى شكل الحاويات conteneurs، أو فى شكل ثقافة العولمة المعلبة فى المسميات الفكرية، والسلوكيات المحتذى بها؛ الأمر الذي أفقد المعنى الذاتي هويته، وتكاسل القصد، وتخاذل المراد، وخنع العزم، وخضع، وتلاشت فيه صور الدفاع عن التفكير العقلاني، وتضعضعت الرؤية فى منحاها الأصيل، ومرجعيتها الإبداعية بلغتها الموروثة. وإذا كان هناك من إرباك ـ بهذا المستوى ـ فى توظيف اللغة بوصفها ظاهرة تواصلية ـ بالمواضعة ـ بقوالب تقعيدية تتفرد بها وتميزها، فإن ذلك يرجع إلى عدم استقرار الذات فى كيفية التعامل مع وسائل التواضع اللغوي السليم La langue standard، ومع مناهج التعليم الناجع، والفعال، وهو ما تحاول خلخلته أفكار ما بعد الحداثة التي تركز على أن يكون المجتمع متفاعلا مع ما يولِّد من سياقات لغوية تحاكي الجيل الجديد الذي يتعامل مع لغته بناء على التصورات التي يكونها المحيط وثقافة السائد، وهذا يعني "أن الإرباك وإيجاد عدم سكون وتنظيم الذات هي خصائص طرق التدريس ما بعد الحداثية، إذ وجود قدر كاف من الاختلال وعدم السكون يقود إلى تغيير نظام القناعات والمسلمات".[15]

ولا شك فى أن لتوجهات الثقافة المجلوبة دافعا بالغ الأثر على ما أصاب الحياة الاجتماعية منذ العقد الأخير من القرن الماضي من تحول، وانفلات فى مسار التفكير، والإبداع، ولغة التواصل؛ الأمر الذي سبب ميلا عن الغايات فى مضامين الهوية من حيث المبادئ، والانحراف فى كل السبل، والفساد فى القيم، والضلال فى التصور، والعي فى التعبير، بما لا يفيد المعنى فى الوجه المراد؛ مما سبب سماجة فى الذائقة السليمة، وميلا إلى الشك فيما أطلق عليه فرانسوا ليوتار François Lyotard بالسرديات العليا، أو ما وراء السرديات الموروثة. grand narrative أو meta-narrative . وينطبق هذا الانفلات والتحرر من ضوابط اللغة حتى على المبدعين ومستعملي اللغة الراقية، لغة الخطاب الرسمي،

على حد تعبير جان جاك لوسركل Jean-Jacques Lecercle فى كتابه: **عنف اللغة The Violence of Language** الذي يرى فيه أن اللغة " من حيث هي نظام من القواعد، هي شيء لامادي. إن الجانب المادي الوحيد فيها شيء عرضي وطارئ، وهو يتخذ شكل كتب النحو القديمة التي يعلوها الغبار. وبهذا المعنى، لا تعود اللغة شيئا يخرج من جسدي، أو يدخل فيه، بل تصبح ذلك الكيان الذي يكون علي أن أدخله ... [و] إن الإبداع فى الخطاب يتجاوز بكثير مسألة التطبيق الفردي للقواعد العامة، أي تجسيد نظام اللغة عبر الكلام الفردي" (16)

لقد جاءت أفكار ما بعد الحداثة لتقوض المبادئ والمسلمات المتضمنة فى هويات الثقافات، وتجعل منها فعلا ماضيا؛ أي فى حكم الإجراء المتجاوز، وتعويضها بثقافات جديدة تحاول أن تخلق جيلا جديدا، وهو ما يتفق مع ما تناوله كل من نيتشه Nietzsche وهايدغر Heidegger فى فلسفتيهما المرتكزتين على الرغبة فى وضع أسس جديدة للفكر الإنساني الحديث، بحسب متغيرات العصر. ولم يعد هذا قاصرا على الثقافة العامة، بل لامس الفكر الإبداعي بوجه عام الذي تأثر بمعالم التفكيك والإرجاء، وأدخل مصطلحات باتت تبدد الوعي وتقوضه أكثر مما توحده، ومن دون أدنى حسبان لتوطين هذه الأفكار والمصطلحات بما يتلاءم مع بيئتنا وهويتنا، مثل اللغة الطفيلية، والعقلية الجدلية المنطقية Dialogc، والميتاحكاية، والمتالغوية، والثقافة الفرعية ـ والأمثلة كثيرة بما لا يتناسب مع سياق بحثنا هذا ـ وهي من إفرازات ما بعد الحداثة التي صدّرت حشدا كبيرا من الأفكار المتعارضة الدلالات فى مفرداتنا الاجتماعية والثقافية. ولعله من هذا المنظور لم يعد باستطاعة المجتمع الحديث أن يحتمي بضميره الجمعي، كما لم يعد للمرجعية دور التوجيه، وهو ما جعل الوعي/الحضور يفقد وجوده بـ [الفعل المنجز] مقابل وجوده المشدود بـ [التفاعل/المنفعل]، أضف إلى ذلك أن" الناس اليوم لا يتوقون إلى الخلاص الشخصي، ناهيك بإعادة عهد ذهبي سابق، إنما للشعور وللوهم اللحظوي، للرخاء الشخصي، والصحة والأمان الذهبي...أن تعيش ليومك هو الشغف السائد، أن تعيش لذاتك وليس لأسلافك، أو للأجيال القادمة"(17)

وفى هذه الحال استطاعت ما بعد الحداثة أن تفصل بين ثقافتين، الأولى رفيعة [أصيلة]، والأخرى وضيعة [فرعية]، وانتشار هذه الأخيرة، وصعودها، على حساب الأولى، وخفوتها، يعد من باب المد الانحرافي، والتدهور الثقافي الذي بدأ يتغلغل فى الوعي الاجتماعي، وبمقومات تعكس حالة التقهقر، بمنظور التفكيك النيتشوي Déconstruction Nietzschéenne فى هوية البراديغم الجديدة، وفى ظل التطورات المتنامية، والتغيرات الجذرية؛ مما أدى إلى استحالة المتابعة بانتظام، واستيعاب ما يعرض على الإنسان من نتاجات وأفكار، وتحديدها بشكل دقيق، من دون التمكن من مفاصلها بشكل محكم، وفق المعنى الدلالي المتواضع عليه من جراء ما يدور فى التواصل الاجتماعي الذي بدأت تعتريه ملامح التفكك، بدءا من عجمة اللسان، وظهور حالات جديدة من التعابير غير الدالة، والتي أصبحت لا تكون وسيطا يوحد رؤية المسار المألوف لعملية التواصل "بالمعنى المشترك والقدر المشترك"، بحسب المعنى الاصطلاحي لأصول الفقه، وهو ما تفتقر إليه أنساق البراديغم، بالنظر إلى استبدال الهوية اللغوية المضادة المنفلتة، بالهوية اللغوية المعيارية، وبقواعد يُعمَل بموجبها La

Grammaire interactive، أو استبدال ـ ما يطلق عليه ـ الدوالّ الدونَ/لغوية " extra-linguistic signifiers (تلك الدوالّ التي تبتعث دلالاتِها خارجَ اللغة) بما أُطلق عليه بـ "الدوالّ الضمنَ ـ لغوية" intra-linguistic signifiers (تلك الدوالّ التي تسترسل دلالاتِها داخلَ اللغة)(18)

ولعل أهم الأسئلة التي ينبغي طرحها ـ فى هذا السياق ـ تكمن فى مدى إمكانية تجاوب المجتمع المحافظ مع ما يتراطن به معظم الجيل الجديد برطانة اللغة المركبة من خليط من الكلمات الأعجمية والعامية، أو ما يرِدها من الدخيل بكل مواصفات الهجنة، ودلالات السوْءة؟ وكيف يمكن التواصل على أساس الفهم المشترك بين الناس؟، أو بصورة أدق، إلى أي مدى تستطيع اللكنة ـ التي أصبحت أمرا مقضيا، ومحاصرين بها من كل صوب، إعلاميا، وإشهاريا، وثقافيا ـ أن تحدد هوية الوعي الذاتي، ضمن سيرورة الوعي الاجتماعي، المكروب مما آل إليه الوضع من تفسخ وانحلال؟

لقد عزز كثير من الباحثين والمفكرين مكانة اللغة/اللهجة فى استعملاتها اليومية، بوصفها لغة تتجدد باستمرار مع حياة الإنسان، وأنها فى نظرهم ينبغي أن تكون دائمة التطوروالتكوّن بحسب تعبير ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin فى كتابه: **الماركسية وفلسفة اللغة Le Marxisme et la philosophie du langage"** الذي يعتقد فيه أن اللغة مجموعة من البنى التاريخية المتغيرة من خلال الصراعات الاجتماعية وما يطرأ عليها من تجديد، من منظور أنها تتأثر بمحيطها وتؤثر فيه أيضا ـ سلبا أو إيجابا ـ وقد أشار مارتن هايدغر Martin Heidegger فى معنى صياغة اللغة The way to Language" إلى أن "اللغة هي وحدها هي التي تتكلم، وهي تتكلم بمشيئتها الخاصة"(19)

وفى إشارة مارتن هايدغر ما يدل على الدعوة إلى تأثر المجتمع باللغة وليس العكس، وتمكين اللغة التواصلية ـ اليومية ـ من إثبات الوجود، بوصفها نزعة وظيفية، تنمو بتجددها باستمرار، وهو ما يشير إليه أيضا كثير من المفكرين المتأخرين من أمثال جيل دولوز Gilles Deleuze وفيليكس غواتاري Felix Guattari وجاك لاكان J. Lacan وجان لوسركل Jean-Jacques Lecercle، وجورج مونان Georges Mounin، واريك بويسنس Eric Buyssens، ولويس بربيطو Luis J. Prieto ، وغيرهم من الذين أقاموا الدليل على أن اللغة عندما تتكلم فإنها تفرض قواعدها المولدة، من منطلق أنه ليس بالضرورة أن تتبع القواعد النحوية أو المتواضع عليها، بحسب ما قننه القدامى، وأنظمة دوسوسير Ferdinand de Saussure وأتباعه subordinate، وإنما إلى لغة تجمع بين تجديد الواقع، والسعي إلى كل ما هو متجدد واحتوائه، والإيلاع به، وليست بناء مستقراً، وإنما هي كيان مزعزع، يحمل طابع بذور العنف violence ، أو شكل التغير الجذري.

ولعل الإشارة اللافتة من أراء هذه الأسماء نجملها فيما ورد عن جان جاك لوسركل Jean-Jacques Lecercle الذي عد اللغة المتداولة بين الناس محور التواصل فى الحياة اليومية والثقافية، وحتى الإبداعية؛ لأنها باتت ـ بحكم الواقع المفروض من الشارع ـ تخترق القواعد اللغوية، وتغير من ضوابطها. وفى هذا تأكيد جواز استعمال اللهجة المحلية، من غير سند علمي، ولما فيها من دال عرضي، من منطلق أن وضع اللهجة أصبح مفروضا بفعل الشيوع والامتداد على حساب اللغة

الفصحى المائلة نسبيا عن الكِنِّ. وفى ذيوع رطانة لسان الجيل الجديد ما يشبه انتشار الجذمور(النجم) من النبات مما لا ساق له، وهو حال لغة هذا الجيل التي تنمو من دون انتظام فى الحياة اليومية، وفى مداها الواسع بتأثيرها فى الاستعمالات اللغوية المتواضع عليها دلاليا.

إن هذا المنحى الذي أصاب اللغة عبر سلسلة من التحولات (من اللغة الراقية، إلى اللغة اليومية، مرورا بلغة المبدع والمفكر ودارس اللغة، والمثقف، والمتكلم العادي) لهو فى نظر جان جاك لوسركل Jean-Jacques Lecercle تجسيد ممتاز للتناقض القائم فى قلب اللغة؛ لأن نواة التجربة الشخصية لكل متكلم فى لغته: فعندما يتكلم الشخص، تكون اللغة دائما هي التي تتكلم. واللغة تتكلم فقط حين يتكلمها إنسان، فقط حين يتجسد نظام اللغة langue ...وكل جيل يمتلك النظام من جديد، وهكذا نكون كلنا من ورثة الصائغ المجهول."[20]

إن أي لسان/كلام يستوجب فى تقديرنا نسقا تنظيميا، وإطارا منهجيا، ومعرفة ـ على الأقل نسبية ـ من الإدراك التصوري؛ لتداعيات الدال وارتباطه بالمدلول المرام، واستحضار نسق التجاور بينهما، تبعا لمقتضى حال المكان والمكانة، وبمقتضى إدراك الشيء فى ذاته، وهذا ما لا نجده فى سياق لسان البراديغم الجديد الذي بات يميل إلى استعمال ما يسميه برغسون Henri Bergson بـ:(المتعذر تعبيره، أو المتعذر وصفه l'inexprimable) على الرغم مما فى هذا الطرح من اختلاف نسبي فى استثماره ـ فى هذا المقام ـ فيما نقصده بعجز الجيل الجديد من ربط علاقة الدال بالمدلول، وتعذره عن التعبير عما يختلج مشاعره، أو ما يريد قوله بطلاقة مما سبب إشكالا فى استرسال تواصل حديثه، واتساع مداه نتيجة الحبسة، أو الصُّمات aphasia "الذي يعاني منه، ولم يعد بوسعه أن يعبِّر عن المَحْدُوسات intuited objects تعبيرًا دقيقًا، أو أن يصفها وصفًا وافيًا، فى واقع الأمر.... كونه يعاني من اضطراب فى الاختلاف والتجاور، ينحو نحو استخدام الاستعارة استخدامًا غالبًا عن طريق المحور الاستبدالي"[21] فى مقابل المحور التركيبي النحوي، أو بحسب تمييز دوسوسير De Saussure العلاقات الاقترانية الترتيبية فى المحور الاستدلالي بالعلاقات التركيبية، بخاصة تركيب الجمل المفيدة التي لم تعد فى مقدور الجيل الجديد أن ينظم أفكاره بها نظير الحبسة الراطنة L'aphasie ، حيث التواصل غير بائن، وحيث مخارج الحروف متداخلة، والنبر الصوتي مشين، وهو ما أشار إليه أيضا جاكوبسون Roman Jakobson فى أثناء حديثه عن اللغة الشعرية، وما قد يعتريها من سقوط المحور الرأسي على المحور الأفقي، مستدرجا تحليله إلى العيب الكلامي L'aphasie بوصفه خللا فى التعبير، سواء بالكلام أو الكتابة، أو فى فهم معنى الكلمات المنطوق بها، أو فى تسمية الأشياء، وقد عالجها جاكوبسون معالجة عمقت النظرية اللغوية البنيوية، فميز بين الحبسة التي تقع على مستوى اختيار الكلمات، والحبسة التي تقع على مستوى التضام بين الكلمات.[22]

وإذا كانت دلالة اللسان تأخذ طابع الرسالة/التواصل، أو اللسان/الكلام فى قالب لغوي تحكمه الجملة المتواضع عليها، فإن هذا اللسان قد يأخذ مجرى اللكنة والرطانة، يكون بموجبه غير قادر على الإبانة ضمن السياق الذي يتكون منه التعبير، فيقتحم كيانَ الذات المتكلمة سديمٌ داكنٌ، ويترسب فى

ذاكرته غشاوة، ناتجة من تبعثر الدوال، وتشتتها فى ذهنه من دون ترابط، وبمضامين لغوية غير منظمة، حينئذ يكون الارتباط بين الذات واللغة مبنيا على العشوائية، بعد أن فقد الدال علاقته التعاقبية فى وعي العاجز عن التعبير اللفظي، وبعد أن افتقر متلفظه إلى الحالة السببية التي تجمع بين الدال والمدلول، أو ما يسمى فى علم اللغة بالمتواليات الدالة، وهو اعتلال يصيب اللسان بخلل، وعجز عن الإفصاح بنطق مبين؛ ليتحول العي/التلكؤ إلى لازمة شائنة فى لسان متلفظه. وقد سبق وأن تطرق فرويد Sigmund Freud إلى هذه الظاهرة، ضمن الحديث عن فقد القدرة على صياغة الأفكار التي أرجعها إلى ثلاثة أنواع:

1. الحُباس اللفظي verbal aphasia، وهو الحُباس الذي "لا تضطرب [فيه] سوى التداعيات، أو الترابطات بين العناصر المنفصلة لتمثيل الكلمة".
2. الحُباس اللارمزي asymbolic aphasia، وهو الحُباس الذي "يضطرب [فيه] التداعي، أو الترابط بين تمثيل الكلمة وتمثيل الشيء".
3. الحُباس اللاأدري agnostic aphasia، ذلك الحُباس الذي يصيب فيه الاضطرابُ، فيما يظهر، سيرورةَ التداعي أو الترابط بين الشيء وتمثيله (أو ربما بين الكلمة وتمثيلها).[23]

وعلى الرغم من محاولة تنميط الحياة، وتحرك مسار الهوية نحو اتجاهات متعددة الأقطاب والمشارب، وعلى الرغم من بروز سلوكيات جيدة أصبح بموجبها المرء يعيد صياغة أسلوب حياته وفق ما تمليه عليه ثقافة المشهد اللامع، بطابعه الحسي الناعم، والداعي إلى بناء وعي جديد، قوامه محاولة خلق براديغم جديد. وقد أسهم فى هذا المشهد المدهش فعل الطفرة المعلوماتية المتزايد فى التطوير، وبأقصى سرعة، وعلى الرغم من تدرج انحسار الهوية عن سؤددها، عبر وابل من الاهتزازات السلوكية المغرية، أو المثيرة، والموردات الثقافية المتنوعة، على الرغم من ذلك نلاحظ أن جوهر الهوية الأصيلة هي دائما محل استعصاء على من يحاول أن يلوي قيمها، وموضع استحالة على من يسعى إلى ثني سبيلها؛ لأن الاتجاه نحو صون أي حضارة، أو إدامة الإبقاء على مكتسباتها، أو الرغبة فى المثابرة على تحقيق ذاتها يستدعي وجود توازن، وأُزُر ثقافية، واجتماعية، ودينية، وسياسية لا يمكن فصل بعضها عن بعض إلا بالتمايز والتباين والتغاير عبر الأجيال المتعاقبة؛ لأن كل ذات هي شفْع، فى أي وجود، بما تنتجه، كيفما كان هذا الخلق من الإنتاج بمؤهلاته المتباينة أو المتجانسة، المتنافرة أو المتماثلة، المتناقضة أو المتشابهة. وتبقى الهوية فى ظل هذا المتفاوت والمتآلف كائنا حضاريا موجودا بكل أشكال الطيف، وهي من جهة أخرى توجد تحت حماية سنن الطبيعة، وسنن المكونات الحضارية، وسنن الرعاية من ذويها، من البررة.

ومن هنا، أيضا، تستدعي الهوية ما يتطلب؛ لحماية نفسها بنفسها، وهو ما ينطبق على اقتحام اللكنة اللسان العربي المبين، كما تتفطن الهوية لما يترصد لها من كيد، وتَنبهها إليه، من منظور:

- استحالة قدرة الرطانة بالتأثير السلبي ـ جذريا ـ على بنية اللغة المتواضع عليها.
- استحالة تعميمها على العلاقات الاجتماعية.

- صعوبة ترسيخ الرطانة، بوصفها فعلا عشوائيا. واللغة ملكة ذهنية وإدراكية، وأداة منظمة تنظيما عقلانيا، وكل فعل عشوائي، يحمل معه سرعة الاختفاء، واندثار بقاياه.
- لأن هذه الرطانة تحمل فى أنساقها تناقضات وسياقات غير منتظمة.
- إدراكها أن انتقال اللسان من اللغة المقننة إلى لهجة ـ بهذا المستوى ـ ليس من قبيل المصادفة، أو بعفوية تلقائية، ولكنه ناتج ممن له مصلحة فى التغيير.
- أن هذه الرجّة من الرطانة، تعزز لسان اللحظة [المرتَدع]، على حساب نظام لغة الضمير الجمعي[الثابت] وكل دائم، ورصين، متفوق.

وفى هذه الحال، عندما تستولي الأنساق الثقافية الجديدة على اللسان، تنبثق "لغة أخرى" منفلتة ـ بمستوى حججها الواهية ـ من اللغة الأم بقواعدها النحوية، وحين يبدو الكلام/اللسان مركبا بجمل غير مفيدة، وبلكنة مسيطرة، تحاول إعادة تنظيم أساليبنا، بحسب ما يطرأ من تفاعلات ثقافة، يراد للغة المصدر أن تتلاشى وتفكك قواعدها.

وإذا كان وضع مستقبل لغتنا بهذا المستوى العاق الذي ألزمه الواقع الافتراضي المهيمن على المجتمع، فإن استنزاف طاقة المدافعين عن سلامة اللغة باتت مخيفة من هوية هذه الرطانة اللقيطة التي أصبحت تؤسس لنمط جديد من الحياة، ومن الوعي الزائف الذي بات يتماهى مع أفكار ما بعد الحداثة، ضمن إطار الاهتمام بالذات على حساب الجماعة، وكسر المسافة على حساب المركز؛ الأمر الذي بدأ يسهم فى إنتاج معانٍ جديدة ألزمها المكان المتشظي، والزمان المتلاشي، والوعي المندثر، والضمير الواهي، ضمن علاقات مركبة صدَّرها مشروع ما بعد الحداثة " وهكذا يمكن القول إن كل مشروع تغييري للمجتمع ملزم بأن يأخذ بالحسبان شبكة تحولات التصورات والممارسات المكانية والزمانية".[24]

لقد تحول الخطاب الاجتماعي فى سياقه التداولي من اليقين الذي كان مدار المصداق فى التواصل إلى تلفيق الحديث/الخطاب وتمويهه، والميل إلى كل ما هو افتراضي، تأثرا بالمجال السايبر Cyberspace الداعي إلى غايات متنوعة لامتناهية؛ لتصبح الحقيقة مدار تفكير اللحظة، ونتاج قاعدة الرؤية العفوية، والارتجال بلا روية فى غياب ما ينبغي أن يطبعه التعلم من تعابير ذات صياغة دلالية واضحة، لعل سبب ذلك يعود إلى أن "التصور ما بعد الحداثي للتعلم مبني على الاعتقاد بأن كل فرد يصنع المعنى من مصادر مختلفة، بدلا من استقبالها جاهزة من خبير"[25]

وحتى نجعل من لغتنا إجراء وظيفيا يوفر إمكانية الوصول إلى ذوق أجيالنا القادمة، وفى مدى استخدامها علميا وعمليا، واقترابها من المعارف الجديدة، وحتى نجعل منها لغة إنتاج فى استعمالاتها النوعية؛ فى خضم ذلك نكتفي بإعطاء وجهة نظرنا فى قابلية وظيفة اللغة، بوصفها أداة للدخول فى التميّز، تجاوبا مع تغيير الأنساق الثقافية الجارية فى المجتمعات الحديثة، وذلك بحسب تجربتنا فى حق وجاهة لغتنا ومكانتها المأمولة، والمغتصَبَة قهرا، والمستلبة ظلما، تحت ضغط التأثيرات الجانبية. وعلى الرغم من أن هناك حلولا مطروحة من وجاهة مفكرينا، يمكن العودة إليها فى مضانها، فإننا ارتأينا أن نَسُوق تجربتنا فى هذه الإمكانات، وهي على النحو الآتي:

• مراجعة نظم التعليم فى مدارسنا بما تستوجبه الطرائق الحديثة تمشيا مع التطورات العلمية المستجدة.

• إعطاء الأهمية القصوى فى المراحل الأولى من التعليم لتدريس مواد: [المحادثة، والتعبير، والإنشاء] بوصفها زادا لغويا رصينا تمكن التلميذ، الجيل الواعد، من التعبير بطلاقة عن مشاعره وطموحاته، والتي ستنعكس إيجابا على وجوده بعد تحمله المسئوليات العليا، ناهيك عن المسئوليات الأقل، فالأكثر أقلية، والمتدرجة إلى مسئوليته الأسرية.

• التركيز على الجانب الوظيفي فى تعلم اللغة العربية.

• إدخال مفردات العصر عن طريق النحت والاشتقاق، أو عن طريق الترجمة السليمة، أو الاقتباس فى حال أن تكون المفردة مصطلحا شائعا.

• الاهتمام بلغة الأطفال، والإعلاء من شأن أدبهم، والكتابة لهم بلغة ميسرة، يراعى فيها الجانب الوظيفي.

• توسيع خبرات المؤهلين وتعميقها، والكف عن تأهيل ذوي المعدلات المتدنية فى مستياتهم العلمية، وتشجيع المتميزين للالتحاق بالتأهيل بالمكافآت المادية والمعنوية.

• حث مؤسسات المجتمع المدني على التعامل مع اللغة الواضحة.

• إبعاد دعاة العامية من وسائل الإعلام.

• مراقبة الوسائل الإشهارية المستخدمة فى جميع الأماكن ووسائل الإعلام بما يخدم سلامة اللغة، خاصة ونحن نعيش عصر الصورة، التي أصبحت تشكل تأثيرا بالغ الأهمية، وسرعة فائقة فى التأثير السلبي على أبنائنا.

• محاولة تقريب اللغة العربية ـ تدريجيا ـ من الأسواق التجارية، وفرض جباية على كل من يلصق لافتة باللهجة الدارجة، أو باللغة الأجنبية، من دون أن يقابلها ما يعبرعنها باللغة العربية على المَحال التجارية أو المؤسسات، أو التظاهرات، ومراجعة مضامين هذه اللافتات .

• زرع حب اللغة الأم فى القلب بدل وجود هذا الحب على الشفين، وعند الضرورة.

• خلق مشروع حقيقي لتبسيط تعلم اللغة العربية، على غرار المشاريع الحديثة التي توظفها المؤسسات التعليمية العريقية لغير الناطقين بلغتهم تحت مسمى "بورصة تعليم اللغات"، كما هو الشأن فى آخر ما استجد من طرق لتعلم اللغات الحية مثل المشروع الذي بدأ الترويج له مؤخرا تحت اسم:**التاندم بارتنر**[26] (Tandem) مختصرا من اسم(Tandem-Sprachlernmethod)

• الاهتمام بإدراج اللغة العربية فى تعلم المواد العلمية ـ فى جميع المجالات ـ ضمن مناهج الجامعات ومراكز التكوين.

وإذا لم نسرع فى وضع حد لأهمال اللغة العربية سوف يصيبها ما أصاب اللغة اللاتينية ـ مثلا ـ والتي تغيرت بمرور الزمن، وتوزعت إلى عدد من اللغات كالفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، فتصبح عندنا ـ لا قدر الله، بفضل وعده ـ لغة جزائرية ، ولغة مصرية، ولغة سورية، ولغة خليجية،...إلخ، هذا إذا صح لنا أن نمتلك القدرة على ذلك، وليس لنا أمام هذا الوضع إلا " **النفخ على الجمرة كي لا تنطفئ**"، وإلا سوف نسهم فى اندثارها كما اندثرت اللغة البابلية، والكنعانية، والأشورية ...إلخ. وإذا كان اندثار لغة ما ينتج من إهمالها من ذويها؛ الأمر الذي يجعلها تعوَّض بلغة أخرى، فهل تستفيق نخوة العروبة، وشهامة المسئولين، وعزة نفس الغيورين على اللغة العربية، وأنفة المتحمسين، وإباء المترفعين من ذوي الاستعلاء، وتراجع الحاقدين، وجدية المؤهِلين [بكسر الهاء] وإخلاص المعلمين،

وكرامة القائمين عليها، وحرص أولياء الأمور، ومن غير هؤلاء كثير، أن ينقذوا أبناء الغد القريب؛ للتعبير عن طموحاتهم بلغة واضحة، وكتابة أسطر سليمة، على الأقل، حتى يكونوا فى مستوى المسئولية فى حينها. أين نحن من هؤلاء؟ وهل نترك صرخة اللغة العربية ـ على لسان حافظ إبراهيم تذهب سُدىً حين استغاثت:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونـاديت قومي فاحتسبت حياتي

ولدت ولما لم أجد لعرائسي رجالا وأكفاء وأدت بنـاتـي

وكيف نسمح لأنفسنا أن توأد لغتنا و"نبكيها مثل النساء لم نحافظ عليها" كما حافظ الرجال على لغاتهم؟ وبعد ذلك أين مروءة الرجال فى زماننا؟ وأين نخوة العروبة فى واقعنا؟ ولكن، لعل مجيبا يجيب عن سؤال البحث عن الرجل الواعد ، كما قال صلاح عبد الصبور:

يا ... . اصبر
دنيانا أجمل مما تذكر

"اصبر .... سيجئ..
سيهلّ على الدنيا يوماً ركبه"[27]

الضمير الواهي/ السطوح الملتمعة

1. خرق اللغة العربية/ الروافد الملتبسة

تثير إشكالية اللغة العربية فى مجتمعاتنا العربية بين معظم لغات العالم الحية، حيزا ممحلاً من الجدل حول إمكانية وجود علاقة اللغة العربية بالنشاط الإبداعي/العلمي، فى وقت تحتاج فيه الأمة العربية بوجه عام إلى الدخول فى خانة الإبداع الكشفي، التكنولوجي، والإسهام فى صناعة التحديث الحضاري المنسجم مع مساعي الألفية الثالثة. وإذا كان ذلك كذلك فهل يمكن أن تسهم اللغة العربية فى البناء الاجتماعي للأمة العربية فى الألفية الثالثة؟ ثم كيف تحافظ مؤسسات المجتمع المدني على اللغة بوصفها عملة متداولة بين مجتمعنا؟ وقد يكون أجدى فى هذا المقام أن نبحث عن أي المبادئ والقيم التي تجعل من اللغة العربية لغة معارف علمية؟ وقبل ذلك كيف نحافظ على هذه اللغة الرصينة فى بيانها؟ وكيف ندفع بها إلى مواكبة العصر؟

إن تنمية القدرة اللغوية فى أبسط أداء لها، هي تحسين مستوى التعبير، بصورة مبدئية. ولعلنا ندرك خطورة هذه البداهة عندما نستشف محصلة اللغة التداولية بين شبابنا وهو خالٍ، وأجوف من أي رصيد لغوي سليم، على نحو ما بيناه سابقا.

وبالنظر إلى لكنة القول، وعجمة اللسان، التي استبدلت بها سلامة اللغة ـ على الأقل ـ فى وضوح نطقها فى العهد القريب جدا، فإن ما يروج له من تداول لفظي فى لحن القول وتلكؤ اللسان لا يُظهِر ما يُخفي صدر القائل لعجزه عن التعبير عن مكنوناته، ولعل فى تأنق كلام بعض إعلاميينا على مساحة وسائل الإعلام المتعددة ـ وغيرها كثير ـ ما يفسر مقتهم للغة العربية، وكأن البغضاء تبدو من ألسنتهم؛ الأمر الذي انعكس سلبا على جيلنا المتخذ من مسئولينا ومثقفينا وإعلاميينا قدوة بالنظر إلى لسان واقع الحال.

ويعد الحديث عن اللغة العربية بما هي عليه فى واقع الحال، سابقة وخيمة ينبغي تداركها، وهي ظاهرة لم تشهدها ثقلفتنا العربية حتى إبّان الاحتلال الذي حاول طمس أثر اللغة العربية من ذاكرة الهوية.

وإذا كانت اللغة العربية فى السنوات الأخيرة تشهد تراجعا مثيرا ولافتا، نظرا إلى حدة خطورته، فإننا نخشى أن يمتد هذا التراجع ليصبح مرضا ـ لسانيا ـ مزمنا يصعب علاجه. ولعل سبب تخوفنا يكمن فى الفزع من التأثير السلبي على صياغة أفكار جيلنا الواعد وسلوكه المعرفي والأخلاقي، ومن أجل ذلك يفترض أن يكون لدى مسئولينا المبادرة فى اتخاذ ما يلزم بغرض التصدي لهذا الهاجس المرعب والمخيف على مكونات ثقافتنا وهويتنا.

وفى اعتقاد الكثير من الباحثين التربويين، ومنظري المعارف والعلوم، أن أي شخص لا يمكنه أن يرتقي من نقص فى المهارة التعبيرية، والتوسع والتمكن منها، إلا بالوصول إلى مطلوب اللغة، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تشخيص اللغة لدى الفرد يكمن فى توسع بُعد النظر، ومحو المجهول، وتثبيت المعلوم، وتقريب المقصود، بسرعة يصعب فيها على غير المتعلم أو المتمكن من الكفاية اللغوية إدراك الأشياء، ومن ثم يسهل على المتعلم كشف الحقائق والتعبير عنها بيسر؛ الأمر الذي يسهم فى نمو معارفه وأفكاره فى الحياة العملية والعلمية.

كما أن الكفايات اللغوية تعدّ حصانة لحسن الطوّية، وضمانا من أي ضرر يهدد المجتمع ويخل بالأمن الفكري ـ على وجه التحديد ـ بوصفه لبّ الجوانب الأمنية الأخرى، وخالصها، وخيارها فى شتى المجالات، سواء منها الثقافية أو الاجتماعية، أو السياسية، أو الاقتصادية، إلى غير ذلك من دعائم المؤسسات الاجتماعية وسندها القوي.

ومن هذا المنظور يكون من باب أولى الوقوف بحزم أمام تفشي ظاهرة لغة الشارع الهابطة التي تشيع فى أوساط شريحة عريضة من مجتمعنا، حتى باتت تدخل الأوساط الرسمية سواء عبر وسائل الإعلام، أو فى المحافل الرسمية. وقد يكون من تفشي هذه الظاهرة الغريبة ـ سواء عن قصد أو عن غير قصد ـ هو إفساد ذوق اللغة المعهود، بفعل سياقاتها المنحرفة التي يتكلم بها شبابنا برطانة، وبلهجة ملتوية قد يصعب فهمها أحيانا حتى فى المنطقة نفسها، كونها مركبة من معظم اللغات. وقد لا نستغرب إذا تأكدنا من توظيف كثير من الكلمات الصينية مؤخرا، والحبل على الجرار. كل ذلك من

شأنه أن يجعل الفرد غير محصن مما قد يتسبب فى زعزعة الحياة والاستقرار الأمني، أو السياسي، أو الاقتصادي، والإضرار بالتركيبة الاجتماعية والثقافية، ولنا فى ذلك تجربة مريرة تشهدها مجتمعاتنا بسبب الهتك اللغوي الذي أثمر تلوثا فكريا، حين رُفعت الأقلام وطويت الصحف، وأحضِرت الوسائل غير المبررة التي استوجبت الخرق، وتجاوز المعقول، حتى أصبح كل واحد منا فى حكم قول الشاعر:

لعَمْرُك ما أَدْري وإني لأَوْجَلُ   على أينا تغدو المنية أول[28]

فتسرع الفعل الأرعن، والرأي الأهوج، وعمَّ الهوس عقول الكثيرين. ولعله من نافلة القول "إن إمساك قلم بيد، ضمان لإبعاد هذه اليد عن أي وسيلة جارحة" والتي من شأنها أن تؤدي إلى التشدد فى جميع مقاصده، من أي اتجاه كان يسعى إلى زعزعة الاستقرار وإثارة الفتنة.

وفى هذه الحال، نعتقد جازمين أن كل من يحكم على عجز اللغة العربية فى عدم استيعابها مستجدات الحياة والمعارف، فإن نظره قاصر إلى حد بعيد؛ إذ العجز والقصور ليس فى اللغة ولكن فى أصحاب اللغة؛ لأن اللغة بأهلها، تموت بموتهم وتحيا بحياتهم. ونحن الذين نقدم الزَّاد للغة، وليست اللغة هي التي تقدم لنا الزَّاد، ومن ثمّ، فالقضيَّة معقودة على أصحاب اللغة، أضف إلى ذلك أن المسألة هي فى جفاف العقل العربِي وجموده، كونه تعود على التَّعالم، واستسهال الأمور باللامبالاة، والاكتراث بالعلم والمعرفة، وهو ما أفْقَدَنا الرضا فى كل شيء، ووُضِعْنَا وراء تجاهل مطالب التزود بتكنولوجيا المعلومات والمعارف، حتى ظننا أننا جهلاء فعلا، مع أن الحقيقة غير ذلك على وجه الإطلاق، بدليل مجرد هجرة أدمغتنا تبدو على محياهم روح الإبداع، وتشرق على وجوههم ابتسامة التفاعل مع المطالب، وتتحرر عقولهم من كل قيد، وتعطي أياديهم كل ما تملك، وتسهم فى صنع التحديث الحضاري. فأين هذا من ذاك؟ وما الذي غير الوضع؟ وأسئلة كثيرة تنتظر إجابات وافية.

2. اللسان العربي بين المعمول والمأمول

تواجه اللغة العربية فى قضاياها المعاصرة تهديدات عديدة لم تعد قاصرة على عامة الناس، بل أصبحت همَّ المتخصص فى دراستها، كالأديب، والإعلامي، والمعلم، والطالب الجامعي،...إلخ. أضف إلى ذلك أنها أصبحت تشغل بال جميع الشرائح الاجتماعية فى معاناتها من ازدواجية التعبير، فى الغالب الأعم، وتأثير ذلك على مستقبل اللسان العربي الذي أصبح بدوره متخَبِّطا بعشوائية بين اللغة المعمولة، المستعجمة، واللغة المأمولة، المجهولة الهوية، التي نجهل مستقبلها، بعد أن فقدت اللغةُ المحافظةَ على الأدنى من الضوابط، ووصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط والتراجع.

وتمر الهوية العربية بوجه عام، واللغة العربية على وجه الخصوص، بأزمة خانقة، ورِدّة فى المبادئ، وهي أزمة لم تشهدها الأمة العربية فى تاريخها، على النحو الذي يجسده منعطفها الأخير فى هذه الآونة، وإذا لم نتدارك الخطأ بالصواب فى حينه سوف نسجل وصمة على جبين كل من عاش فى هذه المدة، التي يمكن أن نطلق عليها "مرحلة الاستخذاء والخضوع"، أو على كل من أسهم بشكل ما فى انهيار مجد الحضارة العربية وإذلالها؛ الأمر الذي انعكس سلبا على براءة براعمنا ـ فى مجتمعاتنا

العربية ـ الموَرَّثة [بفتح الراء وتشديدها] تبعات اليأس، ومعاوِل هدم الهوية من سياسة مكر الماكرين فى الوطن العربي الذين كرَّسوا سياسة الهروب إلى الأمام، والتملص من المسئولية، واستحباب الضلالة على الهدي، فكان من ثمرات ذلك الهوان خلق جيل سمي بجيل الفشل، بعد أن فقد البوصلة، وتحالف مع اليأس، فلم يعد يدري إلا ما هو سلبي، وبعد أن سُدَّت فى وجهه الآفاق التي جعلت منه مشحونا ومأزوما، وفاشلا فشلا ذريعا فى تحقيق الآمال، على الرغم من انتماء كثير منهم، وولائهم للوطنية.

والحال هذه، لا سبيل إلى الحل إلا بضرورة البدء، والتحليق، وتدارك الأمر، بخطى راسخة، والاحتكام إلى التؤدة والأناة، وهي الدعائم التي يمكن أن نتقي بها التسرع فى الحكم على اللغة العربية من بعض الناعقين، والناعرين، والمرتعدين من شدة التخوف من التحكم فيها، كونها فى نظرهم لغة التخلف. ولو أنهم أعطوا لفطنة بصيرتهم قليلا من التأمل، ولحاشية إدراكهم نصيبا من المسئولية، وفرصة من التروي، ومَلِيًّا من التفكير بالعودة إلى الهوية؛ لانبعث منهم رأي ثاقب، وعقل راجح، بعد المزيد من الرصانة والتأمل، ولأدركوا أنه مهما تقربوا من الآخر ـ أيا كان ـ لن يشفع لهم بانتمائهم إليه، امتثالا لقوله تعالى: { وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} (البقرة آية 120).

إن أخطر ما يدعو إليه هؤلاء الأعمياء هو العمل على استبدال اللغة الأجنبية باللغة العربية فى مسارها الوظيفي فى حياتنا الاجتماعية ضمن المساقات العلمية والإدارية، وفى شتى المؤسسات التعليمية، والمدنية، والاقتصادية، والإعلامية إلى غير ذلك من المسارات التي رأوا فيها المنقذ من الضلال (!..) غير أنه فى اعتقادنا، كما هو الشأن لدى الكثير من الغيورين على هويتنا أن كل من يصر على إبعاد اللغة العربية من خارطة الذاكرة العربية هو قاصر النظر، وعاجز عن خلق المبادرة، وتقاصرت مواقفه، وتضاءلت أنفته، وقلت نخوته، واهتزت مروءته تجاه حضارته وهويته.

لقد اكتوت مجتمعاتنا العربية بحمى الشعارات الجوفاء التي تحمل، إصلاح المنظومة التعليمية، أو الثورات الثقافية، وما شابه من الحملات الادعائية بما ليس يراد للغة العربية أن تتطور، تلك المجاهرات الضاغنة التي استغلها البعض بدافع تنظيم جودة اللغة العربية، حتى أصبحت "مظهرا دون مخبَرٍ"، وكلمةَ حق يراد بها باطل، حيث وُظِّف حقُّها فى الاسم، بينما وُظِّف باطلُها فى المسمى الذي كان يراد منه التشويه من قبل بعض الفئات، ومن دون أن تكون لدى الجهة المخلصة لتلك الحملة الكفاية لإنضاج الفكرة، وطرحها بشكل مدروس، أو إيجاد محاولة جادة لوضع اللغة العربية على النهج السليم، المراد لها، كنظير فعلي، ومثيل عملي للغة الأجنبية التي تربعت على عرش التسيير الإداري والساحة الثقافية منذ ما يزيد على عشرات العقود، بعد أن اعتمد أنصار هذه اللغة على السير قدما فى تثبيت هذا التوجه، وكأننا بهم يستندون إلى الركيزة الأساسية ـ لتحقيق أمن اللغة الأجنبية ـ التي أطلقها لويس التاسع Louis IX فى أثناء حملته على مصر لاستعادة شرف الصليبيين والتي وقع فيها أسيرا، وبعد أن أطلق سراحه مقابل فدية، قال قولته الشهيرة التي ما زالت مجسدة إلى يومنا هذا فى كافة مستعمرات

فرنسا:" لقد تكسرت الرماح والسوف فلنبدأ حرب الكلمة" وها نحن نسير على خطة لويس التاسع بخطى وقع الحافر على الحافر؛ لنتمم له مسيرته وفاءً لأمنيته(!...) ولا غرابة فى ذلك، وبعد أن استتب أمن فرنسا فى الجزائر أصدر شوتان chutin وزير داخلية فرنسا عام 1938 مرسوماً يعلن فيه" أن اللغة العربية لغة أجنبية فى الجزائر ومحظور تعليمها أو العمل بها ".

وأمام هذه الحال، وفى مواقف عديدة تصب فى التوجه نفسه، كيف السبيل إلى الخروج من عنق الزجاجة، حيث انهيار روح الأمة العربية ـ بوجه عام ـ ومحاولة تغييب إرثها الحضاري الزاخر، والحرص على إفقاد ثقافتها الغنية، والسعي إلى طمس هويتها الشامخة. وهل ندرك معنى: أن لغة الآخر إذا استبدلت باللغة الأم وانحدرت إلى الحضيض "أسرعَ إليها الفناء"؟ أم أننا فى حكم مقولة ابن خلدون التي نظرت إلى "أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء [29]". أَ هذا هو موقعنا فى الوجود؟ أَ هكذا يراد لنا أن نكون؟ وفى المقابل ما هو الدور الذي قام به نظام تعليم اللغات الأجنبية فى الوطن العربي بوجه عام؟ وما هي النهضة التي قامت بها هذه اللغات بعد أن كرسنا لها الأموال الطائلة؟ وهل حقيقة أن اللغة العربية جامدة؟ وإلى أي مدى نجحنا فى إنقاذها من هذا الجمود؟ وكيف نضمن لها النجاح حتى تغدو لغة مأمولة علميا؟

ومن المؤسف أن نقول: إن آلية التفكير فى الوطن العربي مازالت تتعفر فى وحل العجز المنهجي، وأن القدرة على غربلة الأمور بالنظر العقلي أبعد ما تكون عن التفكير العربي، والإفادة من طرائق البحث العلمي أصْعَبُ فى استثمارها. وبالجملة فإن الذاكرة العربية فى تضادٍ مع الوعي المتشبع بروح العصر، هذا الوعي القادر على تَمثُّل المستجدات، وتكيفها مع مقومات ثقافته بمكتسباتها الأصيلة، المستنبطة، والمجردة من الذاتية المفرطة، والانفعالات، مع مراعاة كل ما يستوجب التجديد، انطلاقا من أن " كل ما لا يتجدد ينتكس، وما لا يكون فى حالة ولادة يكون فى حالة موت" [30]. وحتى فى حال إيجاد فئة تسعى إلى تفعيل اللغة العربية، فإنها تحاول العودة بنا إلى الوسائل القديمة، والقفز بنا إلى الوراء، بدعوى تقديس اللغة، كونها توقيفية، من دون امتلاك القدرة على دعائم التطور الحضاري والوسائل التربوية الجديدة، وكأننا بهذه الفئة تستنزف طاقتها رغبة فى تحقيق انتصارات وهمية، ضاربة عرض الحائط الواقع المأمول، المشرئب إلى لغة قادرة على مواجهة التحديات، وليس ذلك على اللغة العربية بعزيز إذا كان القرار حاسما من المعنيين بالأمر، وفى حال أوكدوا العهد بينهم وبين هويتهم، وأوثقوا الصلة مع التطيور بتحولاته العميقة؛ اعتقادا منا أن أي هوية بمعيارها الثابت ـ من دون النظر إلى المقدس فيها ـ تصبح مدعاة للاضطراب، والتراجع، وبما أن "الجوهر العميق للهوية لا يقلد" بحسب تعبير أدونيس[31]، فإنها أيضا لم تعد تستشعر الحمية وتعترف بالمرجعة المطبقة، أو أنها حاضرة لفعل التوكيد المطبق، الثابت والمؤتلف بقواعده اليقينية، ولكنها أصبحت تتأفف من " أي أصل مطلق، أو مصدر متعالٍ، لا تحيل إلى خزان ثقافي، وإنما إلى ثقافة حية، أو على النتائج الماضية

للثقافة، وإنما على النشاط الذي ينتجها ويستوعبها من خلال مجاوزتها، بل إنها تلتقي مع القدرة على دمج الاختلافات التي تشكل غنى وسمو الإنسان"[32]؛ لذا فإن أي تمسك بهوية اللغة ينبغي أن ينحو إلى كل ما هو منتج، حتى نجعل منها لغة مولِّدة، امتثالا لمقولة" ما لا يكون فى حالة ولادة يكون فى حالة موت".

هناك فجوة عميقة بين واقع اللغة العربية المعمول وأفقها المأمول، ولعل الفرق بين الموقفين يكمن فى هذه الفجوة التي هي داء الحقيقة، كونها لا تحمل هدفا، وأن دعاة هذه الفجوة يحملون قناعة مضللة مفادها أن العجز والتخلف مضروب علينا بوساطة هذه اللغة، وكأننا بأنصار هذه الدعوة المغرضة ـ التي تحمل مقاصدَ، خلْفها ميول وأهواء ـ لا يرون أبعد من أنوفهم، بعد أن أعرضوا عن الحق وأقبلوا على الباطل، فتصوروا أن الأفكار والثقافات يمكن أن تستورد كما تستورد البضاعة الاستهلاكية، وأن اللغة الأجنبية هي النموذج المثال، ومن دونها نعيش فى تخلف، بينما هم فى حقيقة الأمر، يحلقون خارج السرب، وخارج نسيج النسق الثقافي المتجذر؛ لأن واقع الثقافة أكبر من جَذْر اللغة العربية واستئصالها، وأكبر من اكتساب لغة أجنبية لا تحمل سمات المجتمع، ولا تطبع خواصه. من هنا احتد الصراع بين المتغربين بانتهاجهم مسلك اللغة الأجنبية سبيلا، وبين الواقع المتشبع برصيده اللغوي الأثيل؛ الأمر الذي خلق واقعين متضادين كل منهما يصارع طواحين الهواء ـ كصراع دون كيشوت Don Quichotte الذي لم يحصد من وراء صراعه أي جدوى، ومع ذلك كان يحاول أن يستمر فى النزال ـ فتشتت السبل من وراء هذين الواقعين: واقع متغرب فى تشبثه باللغة الأجنبية، وواقع متعرب، فى تمسكه بدفاعه عن اللغة العربية التليدة، وضاع الطرف الثالث، وهو ما يمكن أن نطلق عليه" فضاء الصوت الصامت"، وعلى الرغم من صمته نلاحظ أن بصيرته كانت تحمل راية تفعيل اللغة العربية بحسب مستجدات الحياة العصرية فى أدائها، وجعلها قابلة للتحاور مع العلوم والمعارف، وإذا كان هذا الطرف ـ الثالث ـ قد وجد صعوبة فى خلق بديل، قوامه تفاعل اللغة العربية مع متطلبات الحياة، فإن الطرفين الأولين ظلا يتعفران فى مرتع حظيرة يتجاذبهما صراع الثيران ـ سقط فى هذا الصراع مسعى اللغة العربية تحت الحوافر، حيث رأى كل طرف فى موقفه التِمَاعاً، بينما هو صراع قادنا إلى خط الانحدار، فظل الصراع وضل الهدف، وكأن المواجهة بينهما "أشبه بتلك المعارك التي كنا نألفها جميعا فى المراحل المبكرة من أعمارنا، حين يقف أحد الطفلين على عتبة البيت الكبير الذي يسكنه إخوته وأبواه وأجداده وأعمامه، ويواجه طفلا غريبا عن الحي، فيستطيع بصيحة واحدة أن يتسنفر عشيرته كلها لنصرته، على حين يقف الآخر مترددا فى استخدام ما يملك من قدرات؛ لأن الأرض التي تدور حولها المعركة ليست أرضه."[33] وهذا هو حال اللغة الأجنبية أنَّى كانت، شأنها شأن هذا الطفل الغريب عن الحي. وليست اللغة العربية أكثر حظا من اللغة الأجنية فى مثل هذا المقف حين نستنفر لحمايتها، شأن استنفار عشيرة صاحب الحي لنصرته؛ إذ النصرة والحماية لا تأتي بالحَمِيَّة والتعصب والفظاظة، وإنما الاهتمام المتنامي بموضوع كيفية الجودة هو سبيل القصد المنهجي.

3. اللغة العربية وتجليات التحول

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، كما يكثر الحديث عن دورها المعرفي فى ظل العولمة، وهل حقيقة ما يروج من أن دور اللغة العربية ينحسر فى امتداد مسيرتها المعنوية والأخلاقية؟ وإلى أي مدى تكون أقرب إلى العلوم الإنسانية، وأبعد ما تكون من العلوم الدقيقة وتكنولوجيا المعلومات.

ويبدو أن أهمية التساؤل عن مكانة اللغة العربية مشروعة، ومشفوعة، بتحسرنا على دورها، وتلهفنا على مجدها، بعد أن كان لها موقع الصدارة فى يوم الفتوحات، بما أتيح لها من دور فاعل فى الوجود الحضاري.

ولعل الحديث عن اللغة العربية بهذه الطروحات يقودنا إلى الحديث عن المعرفة بوجه عام، وفى حال إمكان ربط العلاقة بين الدور المنوط بها والرغبة فى النهوض بالحركة العلمية، نصل إلى أن اللغة العربية لا تشكل الواجهة الحقيقية لمسار الاكتشافات العلمية، وهذا يجرنا إلى عدم وجود مناخ علمي، ناهيك عن وجود عوامل من شأنها أن تسهم فى شيء اسمه "علم" فى المعمورة العربية. ولكن، أين الخطأ هنا؟ فى اللغة أم فى راعي هذه اللغة؟ ذلك أن مرتكزات العلم ـ أنَّى كان موقعه ـ بحاجة إلى مبادرة وإلى قرارات مسئولة وحكيمة، وتبقى اللغة هي الوسيلة لتنفيذ ما تستوجبه هذه الأحكام والقرارات لإمكان بلوغ مرامي الكشف العلمي، والوصول إلى تحقيق أهدافه النبيلة، ولا غرو أن يكون هذا عزيز المرام فى حال وجود العزيمة، وأملنا فى ذلك كبير، ولكن:

على قدر أَهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ[34]

وفى خضم الرهانات المزايِدة [بكسر الياء] للذهاب بلغة ما إلى أبعد من الثانية فى اكتشافاتها، أو تقربها من اللغة الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على العالم، بوصفها اللغة النموذج على مختلف مستويات الحياة العادية، ناهيك عن مستوى تكنولوجيا المعلومات، فى ظل هذا الإشكال أصبح من المسلمات أن اللغة العربية إذا لم تواكب الاكتشافات العلمية فإن استمرار بقائها مرهون بعزيمة أهلها، وبإسهامهم فى صنع مبادئ الألفية الثالثة، وعواملها التي بها تقوم، وإن أبقيناها على عهدها، ولم نسهم فى تفعيلها بحسب مستجدات العصر، فإن أدوارها ووظائفها ستتضاءل، وتركح إلى ركن عديم الجدوى، وأكثر من ذلك قد نتسبب فى تحجيمها، وتلجيمها على الرغم من حمايتها من القرآن، ووقايتها من المرجعية الحضارية، أو تتقاعس همتنا، وتتهاون قدرتنا، وتقصر إرادتنا فنسهم ـ بوعي أو من دون وعي منا ـ فى موتها على حد ما قاله أدونيس "ورغم أن القرآن الكريم يحفظها، إلا أن عدم الجدية فى قراءة القرآن، يجعل موت اللغة العربية فرضية يجب النظر فيها[35]. من هذا المنظور يجب التأمل بجدية فى مصير لغتنا التي تمثل هويتنا أمام الزحف الجارف، والسيل الكاسح لمظاهر العولمة، حيث أجمع جل الباحثين فى مختلف أنحاء العالم أن عولمة الثقافة، وتربع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة اللغات العالمية يعد أكثر خطورة على اللغات الوطنية من الغزو الاستعماري على الأوطان، وذلك من خلال إضعاف هويتها، وسلخها من شخصيتها؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على بناء ثقافة الناشئة، وخلخلة هويتهم العربية الإسلامية.

وقد يبدو للرائي أن هناك اهتماما متزايدا من قبل المعنيين، فى المؤسسات، بشأن تنمية اللغة العربية فى الوطن العربي، غير أن هذا الاهتمام فى خلفيته ـ بحسب منطق اللامقول ـ يبدو هَرَمًا معكوسا، أو فى شكل هندسي مخروط، قاعدته مستديرة تعكس الإحاطة المركزية فى جوهرها بموضوع الاهتمام بلغتنا (التعريب)، فى حين تعكس نهاية هذا المخروط نقطة رأسية ضيقة، ونتيجةً مقصودة، وعديمة الأهمية، ومفرّغة من ثمينها النفيس، ومن معدنها، ووضعت موضع عنق الزجاجة، فأريد لها أن يكون من ثمارها التعريب، وتحويله إلى " جعجعة بلا طحين" ولم نجن من هذا الطحين غير الإحباطات والانتكاسات، ولم نجد ما يشفع لنا غير البكاء على " ليلانا " مُذْ كانت مجد الشعر العربي، ورمز الثقافة العربية التليدة.

لقد بدأت ظاهرة العولمة تؤثر تأثيرا سلبيا فى جميع المجالات، بخاصة ما يتعلق بالثقافة فى مضامينها وأهدافها، وعلاقة ذلك باللغة القائمة على أجواء هذه الثقافة التي أصبحت ممسوسة بخروقات العولمة، وثقافة ما بعد الحداثة، المموِّهة للحقائق، والمفسِدة للمرجعيات، "وإذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح، فإن العولمة الثقافية ـ على العكس من ذلك ـ ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية. كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع، والعالم أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة، فإن العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال"[36]، نظرا إلى ما ينتابها من شكوك فى محاولة الهيمنة على العالم، كونها موضع الريبة والقلق والاضطراب.

ويعتقد أنصار هوس العولمة من بني جلدتنا ـ العَقَقَة ـ أن للغة العربية إخفاقات كثيرة منها:

- زوال صفة ثبات اللغة العربية أمام اللغات الحية.
- انتفاء القيمة الجوهرية للغة العربية فى ظل العولمة.
- عقم الثقافة العربية لا يشجع على تبني اللغة العربية وإحيائها.
- انقطاع الثقافة العربية عن دوران الركب الحضاري، فانقطع بها حبل التواصل.
- عجز الوعي العربي عن تمثّل روح العصر والدخول فى الألفية الثالثة.
- عدم الإسهام فى مشروع الحداثة وانبتات التواصل مع ما بعد الحداثة.

أمام كل هذه المثبطات ـ وغيرها كثير، لكفاية ما ذكرنا ـ يبدو على أنصار النموذج الغربي، فى حَرْفيته، الرغبة منهم فى إلحاق ثقافتنا بالغرب، متناسين أن الغرب لا يعترف بغير ذاته، وكل ما يصب فى اهتمامه بالآخر لا يخدم إلا مصالحه، ومهما تنطعوا فى لغة الآخر، أو تراطنوا، لن يكونوا إلا أداة طيعة لمحاولة تدجين ثقافتنا وترويض وجودنا، وقد أصبح هؤلاء الأنصار بيادق لعبة شطرنج فى أيدٍ متقنة. لذلك نعتقد أن سبب مشاكل أمتنا العربية، وتخلفنا، وتراجع لغتنا، وحضارتنا هو تعصب هؤلاء لثقافة الآخر وارتباطهم به ارتباط اللحم بالعظم، سواء فى أثناء حقبة وجود المستعمر فى أوطاننا، أو عندما خرجوا، بعد تفطنهم أن بقاءهم فى هذه الأوطان لا يخدم مصالحهم بالقدر الذي يخدمها وهم خارجه، على نحو ما قاله جاك بيرك jacques berque حين نصح فرنسا:" **إذا أردتم أن تبقوا فى الجزائر فاخرجوا منها**" ولا أدري هل بمقدور عربي واحد أن يصرف وجهه عن هذه المقولة فى تطابقها مع بعض الشرائح فى مجتمعنا من الذين استقوَوا أبرياء الذمة، سواء فى الجزائر أو فى باقي الدول العربية التي رزحت تحت وطأة حروب الاستعمار، ووهنت بداء الاستغلال.

وإذا أريد للغة العربية أن تكون غريبة فى أوطانها فبفعل حدة المدافعين عن اللغة الأجنبية، بوصفها لغة وظيفية تمارس فى مواضع عملية ميسرة مثل السيرورة العلمية، والاقتصادية، والإدارية، ممارسة فعالة، فى حين هم فى واقع الأمر إنما يدافعون عن ضمان تعزيزهم، والتحكم فى التدبر والتدبير، مفضلين مصالحهم الشخصية على معزة الهوية. من هنا جاء رد فعل الجيل الناشئ، الذي كنا نراهن به على الوعد الناجع، سلبيا من دون وعي منه بإدخال لغة ـ أو بالأحرى لهجة ـ ثالثة جعلت من حديث الشارع، وحديث السوق، وحديث عامة الناس معجما له، يستقي من هذا الحديث المائج فيض اصطلاحات هذه اللغة العفنة التي دبّت بشكل لافت، وجالب للنظر، وداعٍ للحيرة، حتى أصبحت دارجة فى المؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام، واللافتات، والتظاهرات، على الرغم من كونها هجينة وساقطة، وكأن اللغة العربية أصبحت فى خبر كان، وتجاوزتها الأحداث بحسب تصور هؤلاء المهجّنة، وبسلوكهم الهجين، ولسانهم المعتل، ولعل فى قول معروف الرصافي ما ينطبق عليهم:

لا تُسابقْ فى حَلْبة العِزِّ ذا العِلــ ـــمِ فما للهجين شأنُ الجوادِ

إن التعصب للغة الأجنبية، بدافع مسايرة العولمة ومشتقاتها من الوسائل المدمرة للهوية الوطنية ـ حيثما كانت ـ فى جميع أنحاء المعمورة، من شأنه أن يضعف لغتنا التي صمدت فى وجه كل المؤامرات عبر العصور، وإذا كان دعاة التعصب منطلقين من قناعة أن اللغة الأجنبية لغة وظيفية فى مجال التداول السليم للمعرفة والعلوم، فإن الدراسات العلمية، والتجارب الجادة، والمستخلِصة لنتائج نفعية، وقدرة متبصرة، أثبتت أن محركات البحث فى الثورة المعرفية تقبل أي لغة يراد لها الحياة، وأن آلية هذه المحرِّكات فى يد أصحابها، وليست فى اللغة، وفى مثل هذه الحال ماذا يفعل اللسان إذا كانت الجثة هامدة. ولنا فى ذلك أمثلة عديدة ـ كما سيأتي الحديث تباعا عن بعض اللغات ذات الأقليات، وأثبتت وجودها علما وعملا ـ مثل اللغة الفنلندية، والدنماركية، والعبرية التي أصبحت بين عشية وضحاها لغة نووية. والقائمة طويلة، عريضة، من اللغات التي تَمكن أصحابها من تطويعها وتفعيلها، كونهم تبنوا سياسة لغوية حكيمة، شأن الحكمة القديمة التي أطلقها الفيلسوف الصيني " كونفوشيوس Confucius" عندما دعا إلى تهذيب اللغة وتنقيحها حتى تسهم فى وضوح الأمور وجلائها، بوصفها مصدر الصواب فى كل شيء، بعد أن سئل عمّا يوّد أن يفعله إذا حكم البلاد. فأطرق كونفشيوس لحظة، ثم قال: **أصّحِحُ أسماء الأشياء**. وما علاقة تصحيح الأسماء بالحكم الصالح؟! أجاب كونفشيوس: عندما تكون أسماء الأشياء مغلوطة يصبح الكلام غير صحيح، وعندما يصبح الكلام غير صحيح لا يجري العمل بشكل صحيح، وعندما لا يجري العمل بشكل صحيح يُصاب بالضرر كيان المجتمع، وعندما يُصاب بالضرر كيان المجتمع لا تعود العقوبات تناسب الجرائم، وعندما لا تناسب العقوبات الجرائم لا يعرف الناس ما يفعلون[37]. ولعل فى رسالة كونفوشيوس Confucius ما يفيد الأهمية القصوى التي يمكن أن تكون عليه اللغة فى تسمية الأشياء بشكل صحيح عن طريق اللغة، وهذا ليس أمرا هينا فى حق مستقبل أجيالنا وهويتنا، بتفعيل لغتنا بما يستوجب إنتاج المعنى من خلال استثمار مدركات الحياة اليومية، على نحو قابل للتفاعل مع التطور الحاصل فى جميع مجالات المعرفة، بخاصة اللغة الوظيفية؛ ذلك لأنه كلما تنتج اللغة الوظيفية معنى خاصا، كلما تبتعد عما تشحنه اللغة من ضوابط وقوانين صارمة. ومن هنا، يأتي إنتاج المعنى فى اللغة الوظيفية التي تستمد مقوماتها من الحزم/اللين، أو كما أطلق عليه نيكلاس لومان Niklas Luhmann بـ " الربط الرخو/الربط المتين، من منظور أن الأنساق اللغوية "المستقرة القابلة للحياة لا بد وأن تكون رخوة الارتباط... وبالتالي صنع عبارات ذات معنى".[38]

إننا بحاجة إلى قرارات مسئولة، وشجاعة، وحكيمة، لجعل اللغة العربية ناصية اهتماماتنا، وذوقنا السليم، حتى لا تتأثر باللهجات فى محيط استعمالها، كما نجعل منها لغة تسهم فى توطين العلوم والمعارف الجديدة، وفى هذا ما يشكل مدخلا لثورة "فكرية على من يصرون على اختصار اللغة والبحث اللغوي فى النحو والصرف، واختصار النحو فى الإعراب، وتجريد اللغة من جوهرها الثقافي والمعرفي، وجعلها وعاء فارغا بلا محتوى. واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأساتذته وحدهم، وأكبر من أن تحصر فى هذا الاطار الضيق الذي لا يتناول الغايات والوسائل ومستويات اللغة: فصحى وعامية، واللغة والعلم، واللغة فى عصر العولمة.[39] واللغة بهذا الشكل مسئولية الضمير الحي، والقرار الحكيم، قبل أن تكون مسئولية الجميع، بخاص المدرسة التي ينسب إليها فشل إتقان اللغة على الرغم من تحملها جزءا كبيرا من هذا الفشل.

4. متاهة اللغة/إنتاج الدلالة

لقد أحدثت كثيرٌ من الثورات ـ قبيل انثناء نهاية القرن العشرين، وبداية الألفية الثالثة ـ تغييرات جذرية فى تقنية صناعة المعلومة المعرفية، منها على سبيل المثال، لا الحصر، ثورة الاتصال [بما فيها ثورة الميديا Media] والثورة الرقمية، وثورة الجينات، وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء، إلى غير ذلك من الثورات التي تَغيب عنها أي مشروع عربي يسعى إلى الاندماج فى هذه الثورات، أو الإسهام فى بلورتها؛ الأمر الذي جعل الأمة العربية تعيش فى ركح زاوية حادة، فى انتظار زحزحتنا إلى الهامش لنكون خارج الحدَث. وكأننا لا ندري فى أي الأيام نعيش على رأي صلاح عبد الصبور[40]، فى:

هذا اليوم المبوء هو اليوم الثامن

من أيام الأسبوع الخامس

فى الشهر الثالث عشر

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبرؤى استراتيجية، إلى هذه الثورات المعرفية، فإننا نأبى الخوض فى تجربة المشاركة فى صنع هذه الثورات، وكأننا لا نشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه من مضامين، تصلنا بسهولة ويسر، ومن دون عناء يذكر. وقد ساعد على تأخرنا، فى جميع المجالات، إهمالنا لغتنا، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمرض التعالم، واهتمام العقل العربي بالشيئية، وذهان السهولة، حينما يبادر إلى حل إشكال صعب؛ فيخرِّبه لعدم معرفته بالطرق السليمة لحل هذه الإشكالية، أو هذيان الاستحالة "وهذان الشكلان يتمثلان فى صورة نوعين من الذهان Psychose، فإما أن يتمثل فى صورة النظر إلى الأشياء على أنها (سهلة)، وهو قائد لا شك إلى نشاط أعمى... وإما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها (مستحيلة)، فيصاب النشاط بالشلل"[41]، وبخاصة عندما نرى الأمور مستحيلة، ونقف أمامها عاجزين، وهي فى الحقيقة غير ذلك؛ لعدم تمكننا من أدائها؛ ولفقدنا الوسائل التعبيرية والمنهجية، والكفاية القادرة على حلها. أضف إلى ذلك اعتماد التجارب الفارغة من أي محتوى فكري. وسواء مع ذهان السهولة فى الإقبال على التكرار، أو مع ذهان الاستحالة الذي يقود إلى العقم، تفتقد هويتنا اللغوية مكانتها الحضارية.

وفى خضم هذه الأجواء المتعفرة لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ما لم نحسم طرق تدريسها، والاهتمام بها فى جميع المؤسسات حتى تصبح آهلة للتعايش مع الألفية الثالثة، وتصبح قابلة للصرف مع الثورات المعرفية والرقائق الإلكترونية، والابتعاد بها عن الانفصال الفكري المفروض عنا، ومنا، فى الخارطة العربية، وجعل الخطاب سائدا فى جميع مرامي الحياة باللغة الأجنبية، من أدنى مستويات التوظيف إلى أعلى هرمه. ولعل هذا ما جعلنا محاصرين بقيود لغات الآخر، وذلك نتيجة تراكم قرون من الابتعاد عن وظيفة اللغة العربية والمعرفة النافعة، والعمل الجاد؛ لذلك أصبحت الأمة العربية ـ كما جاء فى رأي مالك بن نبي ـ "كالفارس الذي أفلت الركاب من بين قدميه ولم يسترده بعد، فهو يحاول أن يستعيد توازنه.[42]

والحقيقة أن التحديات التي تعيشها اللغة العربية لا تقتصر على كيانها فحسب، بقدر ما تمس، هذه التحديات، كيان المجتمع العربي برمته، خاصة ونحن نعيش حالة الشغف بالاقتداء بالآخر [الغالب] فى جميع مواصفاته، متناسين مقولة ابن خلدون:"أن الأمة إذا غلبت، وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء"[43]. وكذلك بعد أن يفقد المجتمع فعاليته عندما تَنبتُّ الصلة بينه وبين لغته، وبين أفكاره المطبوعة وأفكاره الموضوعة.

ومن هذا المنظور استوجب الأمر منا ترسيخ حب لغة أحلامنا، وارتباط روحنا بها، وهذا فى تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، فى بناء شخصيتنا. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك؟ ثم كيف السبيل إلى تطوير اللغة العربية فى ظل اكتساح جرَّافة اللغة الإنجليزية بقية اللغات التي يراد لها الاستخذاء؟ وكيف يرضى ذووها الخنوع والذل، ويخضعون للآخر وإضعاف شخصيتهم؟ وقبل ذلك ما هي محركات تفعيل اللغة العربية فى ظل العولمة، وتكنولوجيا المعلومات؟

لعل أهم محرك هو التحصيل المعرفي، والتحصين الثقافي المترامي، مع العلم أن المعرفة تضمن للإنسان مجموعة محركات، من أهمها:

- الزاد العلمي، وكل ما يُستخلَص من أنواع المعرفة.
- قدرة الاستيعاب.
- اكتساب الخبرة، من عوائد المهارة اللغوية، ومن الاستنتاج والتعمق فى التحليل، والتبصر فى التفكير.
- القدرة على التركيز.
- رفع المستوى السلوكي والأخلاقي الذي من شأنه أن يسهم فى التفرقة بين الصواب والخطأ.
- تعزيز المهارة.
- تنمية القدرة الذهنية.
- ارتفاع مستوى أداب الجودة.
- تثمين القيمة، كونها السبيل إلى معرفة الصالح من الطالح، ومن يضلل المعرفة فلا سبيل له إلا العنف، وهو الحاصل فى حواراتنا العقيمة، وفى نسقنا الثقافي بوجه عام.

ومن الثوابت فى الدراسات العلمية أن أيّ معالجة للتنمية البشرية لا تفلح من دون التعامل معها ضمن سياق تفتح عقول الناشئة على العمل المعرفي. وبنور المعرفة، من مهارة اللغة، يحصل منه نور

اليقين، وبحصول ذلك النور تتضح الحقائق والأمور، أضف إلى ذلك أن إثارة الوعي بدور اللغة، وما ينتج من ثمارها، تُمكِّن القوةَ المتضمَّنةَ فى القول. وبسلامة اللسان نضمن، نسبيا، العدل الاجتماعي، ونشر القيم الفاضلة، وكثرة طلب المودة.

كل ذلك الضرر ناجم من أن إهمال اللغة، وقلة الاطلاع، وانحسار القراءة، والتشبع بالمعلومة المسمومة، يؤدي بالضرورة إلى انغلاق الأفق وانسداد الرؤية، وحصر البصيرة فى خانة ضيقة بتوجيه من الجهل إلى العنف، وكل ما يدور فى فلكه من ارتدادات جارحة. ولعل المحصلة من وراء هذا الإهمال أننا جعلنا من براعمنا عصافير خشبية لا تقوى على الطيران؛ لأن التلميذ فى مدارسنا لم يزود باللغة التي تمكنه من التحصيل العلمي والتحصين الثقافي، والتحليق فى الإبداع، والإمساك بالريشة الفنية، عوض الإمساك بالعصا ـ الآلة ـ الفتاكة؛ لذا فهو ـ بحسب رأي أحد الباحثين ـ أشبه ما يكون بالطائر الخشبي العاجز عن الحركة، أو الطائر الجارح المسلوب الروح والإرادة. فما الذي حول طيورنا الجميلة إلى طيور خشبية، أو طيور جارحة؟

وانطلاقا من أن الاهتمام باللغة فى أي مجتمع هو اهتمام بالذات فى تمكين هويتها من الاستمرار فى بناء الحضارة، فإن أي لغة تكون لديها القابلية لأي مسعى يحرك ذويها للتساؤل عن إثرائها، بالمستجدات الضرورية؛ "لأن اللغة هي مسكن الكائن" حسب رأي هايدغر Heidegger Martin، ويمكن أن نستدل على هذا برأي أحد الغربيين من الذين ينظرون إلى اللغة العربية على أنها مرآة مصقولة بالمرجعية الثقافية، ومجلوة بالتقدير من خلال ما قاله دومينيك شوفالييه[44] Dominique Chevallier من أن اللغة العربية فى منظور ذويها ترتقي إلى مستوى التقديس؛ لأنها مازالت بقيمها الروحية، وعلى الرغم من أن هذه اللغة "تكيفت" بأشكال مختلفة، مع تحديات "الحداثة" فى القرن العشرين من خلال الأنماط الجديدة للتربية، وللتواصل الإيديولوجي... فإنها ظلت، مع ذلك، الضامنة لاستمرارية المثل الإسلامية وللرسالة الإلهية، بل إنها تمثل ذاكرة تمنح للفرد عناصر الوعي للتعبير عن هويته قياسا إلى الجماعة التي يتحرك بداخلها، وإلى إمكانية التسامي عن هذا الاجتماعي داخل الإسلام بوصفه دينا كونيا".

إن الهدف **التربوي /التعليمي** بحاجة إلى رؤية استراتيجية حكيمة ترعى مصلحة الهوية قبل مصلحة الحياة اليومية الاستهلاكية فى جميع مكوناتها؛ لأن هذا الهدف ـ المتبع حتى الآن ـ لا يقوم على برهنة الشيء بمسببه، ولا يُخضِع المتلقي للملاحظة التحليلية، أو الداعية إلى التبصر بالقدر الكافي، وإذا كنا نعترف بجهود القائمين على منظومتنا التربوية، وإذا كنا نقر بصعوبة التحكم فى العدد المتزايد فى الصفوف، وإذا كنا نعترف بوجود خطط منهجية جيدة، وإذا كنا نعترف بهذا وغيره كثير من جهود المعنيين بالأمر، فإن ذلك لا يكفي ما لم تحصن الجهود بطرق منهجية، أكثر صرامة، أو كما قال الفيلسوف ديكارت René Descartes :"لا يكفي أن يكون لديك فكر جيد، ولكن المهم أن يطبق جيدا".

فكيف لنا أن نطبق فكرنا جيدا؟ وقبل ذلك، كيف لنا أن نقرب لغتنا إلى هذا الفكر الجيد، والإبداع العلمي، الكشفي؟

منذ البداية نعترف أن لغتنا العربية تصارع المواراة، وتعارك الأشباح، وتقاوم التحدي، وتجابه الظُّلمة التي تتخفى بتلاوين وأصقاع من صراعات، وتحولات سوداوية المسوغات فى نتائجها. وهذا ما لم يستسغه الخطاب العربي الغيور على لغته العربية التي تمثله، من منظور أن تلك المسوغات فتحت

مجراها على التحايل، والتشويه، والزيف. والحال أن اللغة العربية فى ظل صراعات دون كيشوت Don Quichotte بحاجة إلى سياسة رشيدة، وقرار حازم لاتخاذ ما يلزم، حتى نرقى بلغتنا إلى مصاف الرقي الحضاري. وما لم نحل مشكل لغتنا المعبرة عن هويتنا لن نصل مهما سلكنا من سبل؛ لأن " الناس قبل أن يستخدموا اللغة لمجرد توصيل المعلومات بأسلوب أمثل من حيث الكفاءة، إنما يستخدمونها لخلق وصون هوية اجتماعية، وحدود اجتماعية. ويدخل هذا حتى فى طريقة تفكيرنا عن اللغة". (45)

ولعل ما يدعو إلى الحيرة والدهشة، وهذا ما ننتظر الإجابة عنه من الحاقدين على اللغة العربية، هو: كيف تناغمت بعض اللغات التي كانت ميتة مع متطلبات العصر، مثل اللغة الأردية، واللغة التركية التي استُبدِلت حروفها فى عهد أتاتورك [1881 - 1938] الذي أراد لها أن تنافس اللغة الأوروبية، أو تلك اللغات التي انتعشت بذويها، ونهضوا بها، ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة تفوق كل حصر نذكر منها:

• اللغة الصينية المتناغمة مع متطلبات العولمة، وأصبحت تهدد الغرب فى عقر داره بمنتوجاتها المنافسة لصناعة الغرب المتميزة.
• اللغة الأردية التي أصبح لها تأثير على اللغة الهندية على عراقتها. كما أن حروفها مقتبسة من الحرف العربي وهي اللغة الرسمية فى باكستان بمسوغاتها النووية.
• اللغة الكورية المسماة بـ " الهانغول Le hangeul " ويعود تأسيس حروفها إلى العالم اللغوي " جو شيج يونج" (1913)، ولها ما لها فى الساحة التكنولوجية اليوم.
• اللغة الفارسية التي أصبحت لغة نووية، وتناور الغرب فى تقنياته العلمية، بعد أن باتت تقض مضجعه وتؤرقه، وتهدد العالم فى نظر الغرب.
• اللغة الفنلندية التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة، وجعلوا من لغتهم لغة صناعية، حتى أصبح يتباهى كل فرد فى العالم باقتنائه هاتف نوكيا Nokia المصنع فى فنلندا Finland ، ناهيك عن صناعات متنوعة تُستخلَص من هذه اللغة، على الرغم من قلة المتحدثين بها.
• اللغة الدانماركية: والتي لا يزيد سكانها على خمسة ملايين نسمة، تميزوا بصناعة الألبان ومشتقاتها التي لا تستغني عنها أي مائدة فى العالم سواء أكانت عالية الحسب والمقام، أو قليلة الخير وميسورة الحال.
• اللغة العبرية: وهي مثال بيِّن وواضح، ولا أحد يتغافل عن تاريخ إحيائها، ومدى دورها فى التكنولوجية النووية، ويحضرني هنا قول " إفي لارنر"، الناطق باسم عضو الكنيست:" لا يوجد عندي أي شك بأن المجتمع الاسرائيلي إذا أراد الحفاظ على طابعه اليهودي عليه أن يعزز منزلة اللغة العبرية ". وأكد "لارنر" لوكالة فرانس برس France-Presse:" كمجتمع ودولة، فإن اللغة العبرية تشكل استمرارية لسلالة أجيال بدأت قبل الآلاف من السنين"(46). ومن دوافع غيرة اليهود على لغتهم ما ذكرته صحيفة "معاريف" الناطقة بالعبرية:"أن الكنيست وافق مبدئيا على مشروع قانون يطالب بالكتابة على الواجهات، أو لافتات المتاجر، باللغة العبرية الواضحة، وإلا فإن الرخص ستسحب من المتاجر والمطاعم وأصحاب المؤسسات التي تخالف هذه التعليمات". وأضافت "معاريف": أن" الكنيست يعارض كتابة اللافتات بالإنجليزية "، ويهدد بسحب تراخيص الأعمال المخالفة"(47).

أمام هذه الصور المعبرة، والدالة عن قتامة الوضع عندنا فى الوطن العربي، أ ليس من حق براعمنا أن تحمِّل مسئولي الوطن العربي وزر ما آلت إليه العربية، ومن تضليل مكانتها، والدور

المنوط بها؟. ثم، أين هو دور المؤسسات المدنية منذ أنشئت، وحيثما كانت؟ أم أن دورها منحصر فقط فى تعزيز مكانتها فى البحث عن المناصب العليا؟ متناسية دورها فى الحفاظ على ثوابت الأمة، واللغة الوطنية هي أحد هذه الثوابت المعبرة عن هويتنا. وإذا كانت قناعتهم بأن اللغة الأجنبية هي الحل الأمثل لمستقبلنا، فما الذي فعلوه منذ كانوا يدافعون عنها؟ وماذا قدمت هذه اللغة للمستقبل الذي كان قبل خمسين سنة أوَانا لمستقبل مشرئب؟ أم أن لكل شيء أوانه المخيَّب؟ ومتى يحين هذا الأوان؟ والحبل على الجرار فى انتظار هذا الأوان الزاهي الذي يرزح تحت رحمة حرف السين للتسويف الموعود، وتعهداته التي قد تأتي أو لا تأتي، بعد أن كان آباؤنا ينظرون إلى المستقبل وكأنه فى متناولهم، أو على الأقل فى متناول أبنائهم. فلا التسويف أجاد [أي أتى بالجديد]، ولا الأوان أفاد، ولا المستقبل ازدهر، ولا اشرأبت إليه الآفاق، ولا أفاد شيء فى أوانه، ولا فى غير أوانه، وتهنا وتاهت بنا السبل بين الأوان والهوان، فأصبحنا فى موضع هوْنٍ على هوْنٍ، وليتها دار لقمان بقيت على حالها، بل على العكس من ذلك أُرِيدَ لنا أن نرتقي إلى الصعود نحو الأسفل بكل جدارة، ومن دون استحقاق، بوصفنا لا نستحق ما فعله الجهلاء باللغة العربية، وجهابذة اللغة الأجنبية الذين رأوا فى ضالتهم سبيلا، ولا يعرفون أنهم فى ضلال من أمرهم المشين.

وإذا كانوا يتذرعون بنماء اللغة الأجنبية بوصفها الحل الأمثل، فالأمر مردود عليهم، بوصف هذه اللغات الحية واكتسابها أمرا يعزز مكانة اللغة الوطنية، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، وليس فى ذلك ما يهدد هويتنا التي تصونها لغتنا العربية عندما نتسلح بمكوناتها وضوابطها، شريطة أن تتداول اللغة الوطنية وفق الأسس العلمية، والمنظور الاستراتيجي الوطني، حتى نتمكن من تحصين الذات من كل المقومات، ونجعل منها لغة تسوّق منتوجاتنا العلمية والفكرية والثقافية؛ ولأن الثقافة عامل مهم لكل الشعوب والأمم، فلا يمكن أن تحقق غايتها فى غياب الاهتمام باللغة الوطنية، وليس غريبا أن نقول: من لا يملك آلية التمكن من لغته لا يمكن امتلاك ثقافة تؤكد وجوده فى الحياة على مر العصور. وفقدان وعي الهوية، أو الانتماء، دليل على الارتماء فى قاع ثقافة الآخر، والنيل من ثقافة الذات، سواء عبر مسار المكون الحضاري، أو عبر أنساق العلامة المركبة من عنصرين(دال اللغة) فيما يسميه جاك لاكان Jacque Lacan بالكلمات، و(مدلول الأفكار) "فعندما تنهار السلسلة الدالة، عندها تصيبنا شيزوفرينيا على شكل خلط بين المدلولات المنفصلة وغير المترابطة، وإذا جرى تركيب الهوية الشخصية عبر خليط مؤقت بين الماضي والمستقبل والحاضر، وإذا ذهبت الجملة فى المسار نفسه، فالعجز آنذاك عن ربط الماضي والحاضر والمستقبل فى الجملة يجلب معه عجزا مشابها فى ربط الماضي والحاضر والمستقبل فيما خص وحدتنا البيولوجية الخاصة وحياتنا النفسية... أما تأثير الانهيار فى سلسلة الدلالات فسيكون تحويل تجربتنا العملية إلى سلسلة من أشكال الحاضر المجردة وغير المترابطة".[(48)]

وفى مثل هذه الحال، ليس لنا إلا أن نؤكد أن التمكن من لغتنا هو الحاجة العليا لزرع الوطنية " ونحن اليوم، والأمة العربية تقرع أبواب القرن الحادى والعشرين، وقد أثخنتها الجراح، وأثقلتها الحروب المصطنعة والهزائم المصممة، والاستسلام المهين أمام العدو، لنجد من واجبنا أن نعيد النظر فى السياسات اللغوية فى جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية. وليس ذلك لأنها تحدد هويتنا الحضارية فحسب، ولكن بوصفها العنصر الأساس للتقدم العلمي والمشاركة المبدعة فى بناء الحضارة الحديثة. وإن هذا الدور الفكري والعلمي الرائد الذي قامت به العربية فى تاريخها الزاهر ولعدة قرون، هو

الدور الذي تدعى إليه فى هذا العصر من أجل نهضة علمية وفكرية، تعيد للأمة العربية مكانتها بين الأمم، وتحررها من ربقة التبعية الفكرية، وتنقذ كياناتها المتهافتة من الضياع والاندثار"[49].

وأمام تعاجم اللغة العربية على ألسنتنا، وتراطن كلامنا، وتلعثم نطقنا بلسان محبوس، فإننا نستغرب فوق ذلك أن يبتدع شبابنا عربية هجينة، فاقت كل تصور، تسمى بعربية الدردشة ، وهي طريقة كتابة العربية بحروف لاتينية فى الرسائل القصيرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو ما يطلق عليه **المجتمع الشبكي** Réseaux sociaux، أو عبر الهواتف المحمولة، والكل يعرف هذه الإشكالية، ولا أحد يحرك ساكنا، والكل يتفرج بصمت مُطبَق على خطورة ما آلت إليه اللغة العربية التي صارت عسيرة فى دارها، بدءا من ربِّ البيت الذي لم يَرْعَ أبناءه امتثالا لمقولة الشاعر:

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

ويا للعجب من نتائج تمخُّضِ هذا الرقص، خاصة إذا كان الراقص طفلا ـ من دون وعي منه، أو أجبر على المشاركة بفعل إيقاع الرَقص ـ كيف سيكون غدا فى أثناء تحمل المسئولية المنوطة به، أيا كان نوعها، وما ذنب هذا البرعم الواعد فى تحمل تبعات هؤلاء المهرة فى الرقص المثير والفاضح، وأمام مسئولي أبناء الغد القريب (!...) وهل يعدّ لوم هؤلاء المحترفين، فى الرقص، تجنيا عليهم، أم على اللغة العربية؟

وإذا كان الأمر كذلك، كيف لنا أن نعطي معنى مقبولا، ومقنعا لهويتنا اللغوية على وجه التحديد؟ وكيف تكون الهوية نسقا ثقافيا لحياتنا اليومية؟ وقبل ذلك كيف نوفق بين ثوابت هويتنا، وتغير الوعي الكوني؟. صحيح أن هذا النمط من الحياة الجديدة أخفى الكثير من ثوابت الأصل، غير أن هذا لا يمنع من أن للأصل مصيرا حتميا فى حياة الإنسان على مدار الحياة الكونية ينبغي المحافظة عليه؛ " لأن أنساق الهوية بحسب تعبير كاسيلز Kastells هي محرك دينامي فى تشكيل المجتمع، وبأنها عملية بناء المعنى على أساس خاصية ثقافية، أو مجموعة مرتبطة من الخصائص الثقافية، تحظى بأولوية على مصادر المعنى... وأن من يبني الهوية الجماعية ـ وأيا كانت الأغراض ـ يقرر بدرجة كبيرة المحتوى الرمزي لهذه الهوية ومعناها لأولئك الذين يتوحدون معها"[50]، بخاصة مع التطور المعلوماتي بفرضياته الجديدة والمتوحدة مع أنماط ثقافة الأجيال القادمة، المرتبط بالمجتمع الشبكي الذي أحدث رجة شملت القيم والمفاهيم بجميع أشكالها، بعدما اتخذت وسائل هذا المجتمع من تقنيات عالية الجودة أبعادا أساسها الانتقال مما هو قار إلى ما هو مفكك، على النحو الذي ترمي إليه أفكار ما بعد الحداثة.

وباقتحام النسق الثقافي الرقمي بوظيفة المجال السايبري Cyberspace، يحاول البراديغم Paradigme الجديد أن يزيح ـ نسبيا ـ عن مدلول الهوية، بمكوناتها، الدور التقليدي الذي كان يتحكم فى توجيه الناس، وفى المقابل أصبح يمنح الفرد نسقا خاصا يقوم على حرية الذات فى التعامل مع النزعة الفردانية Individualité التي تماثل تعاملها مع محركات تصفح الروابط الإلكترونية.

الهوامش:

[1] ينظر، جيرمي ريفكين: **عصر الوصول، - الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة** - ترجمة: صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، 2009، ص 269.

[2] عبد الله الغذامي: **القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة**، المركز الثقافي العربي، ط2، **2009، ص 45.**

[3] هيدغر: **الأعمال الكاملة**، ج 65، ص 49، عن فتحي المسكيني: **الهوية والزمان (تأويلات فى فينومينولوجية لمسألة " النحن"**، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2001، ص 5.

[4] فتحي المسكيني: **الهوية والزمان(تأويلات فينومينولوجية المسألة " النحن"**، ص 9.

[5] Heidegger ; Essais et conférence ; que veut dire « pensés » paris 1985 ; p.177

[6] ستيوارت هول: **هوية قديمة جديدة، إثنيات قديمة جديدة**، ضمن كتاب، **الثقافة والعولمة والنظامه العالمي**، تحرير: أنطوني كينج، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2001، ص 72.

[7] ديفيد هارفى: **حالة ما بعد الحداثة - بحث فى أصول التغيير الثقافى** - ترجمة محمد شيا، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2005، ص 78.

[8] دفيد هارفي: **حالة ما بعد الحداثة** ، ص 78،77.

[9] ستيوارت هول: **هوية قديمة جديدة، إثنيات قديمة جديدة**، ضمن كتاب، **الثقافة والعولمة والنظامه العالمي**، تحرير: أنطوني كينج، ص 76.

[10] إدغار موران: **النهج - إنسانية البشرية/هوية البشرية**، ترجمة: هناء صبحي، هيئة أبو ظبي الثقافية والتراث، كلمة، ط1، 2009، ص 285.

[11] مطاع صفدي: **الفكر بما يرجع إليه وحده - سؤال العتبات** - مجلة الفكر العربي المعاصر،عدد 103/102، بيروت، لبنان، 1998، ص 7.

[12] جان بودريار: **المصطنع والاصطناع**، ترجمة: جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2008، ص 144.

[13] ديفيد هارفى: **حالة ما بعد الحداثة - بحث فى أصول التغيير الثقافى**، ص 333.

[*] يستخدم اسم " الجيل واي Generation Y " للدلالة على الجيل اليافع الذي وجد فى بداية الألفية الثالثة - مع تضارب فى تاريخ النشأة - وهناك من أطلق عليه جيل Millennials) بدلا من "جيل واي"، وهو الجيل المنشغل بكل ما يمت بصلة إلى الشكل الثقافي التجاري الإشهاري، وعلو شأنه فى سلوكيات الحياة الاستهلاكية.

[14] Barthes (R) : **Eléments de sémiologies**, éd. Du seuil, 1964, p.80.

[15] Haushildt, P & Wesson, L. (1999). **When postmodernism thinking becomes pedagogical practice. In Teaching Education**. 10,2,123-129.

[16] جان جاك لوسركل: " **عنف اللغة** "، ترجمة: محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، ط 1، 2005، ص 209 210.

[17]Christopher Lasch :**The Culture of Narcissism .American Life in an Age of Diminishing Expectations**. NEW York Naorton, 1979, pp 30-33
Christopher Lasch. La culture du narcissisme : La vie américaine à un âge de déclin des espérances.

[18] ينظر، غياث المرزوق : **الدال**، موقع معابر، الرابط، http://maaber.50megs.com/

[19] Martin Heidegger**, On the way to Language** , translated by Peter D.Hertz. ... **New York** : Harper & Row, 1971. وانظر أيضا، دراسة

[20] جان جاك لوسركل: " **عنف اللغة** "، ص 206.

[21] ينظر، غياث المرزوق: **الدال**.

[22] ينظر، رامان سلدن: **النظرية الأدبية المعاصرة**، ترجمة جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1998، ص 102، بما فى ذلك تعليق المترجم فى الهامش رقم 11.

[23] ينظر، غياث المرزوق: **الدال**.

وينظر أيضا، Harrington, Anne. Medicine, **Mind, and the Double Brain: A Study in Nineteenth-Century Thought**. Princeton University Press; 1989. P245

[24] ديفيد هارفى: **حالة ما بعد الحداثة - بحث فى أصول التغيير الثقافى**، ص 259.

[25] Caine, R. & Cane, G**. Education on the Edge of Possibility**. Alexandria (VA): (1997). ASCD

[26] وتقوم هذه المبادرة على أساس اشتراك طرفين يتقنان لغات مختلفة فى تعليم بعضهما ببعض سواء عن طريق التواصل المباشر، أو الرسائل العادية، أو الإلكترونية، أو حتى بوساطة برامج المحادثة المباشرة على شبكة الانترنت.

[27] صلاح عبد الصبور: **المجموعة الكاملة**، دار العودة، بيروت، ط1، 1972، ص 267 298.

[28] معن بن أوس المزني: **الديوان**، تحقيق: نوري حمودي القيسي (وآخر) مطبعة دار الجاحظ، بغداد، 1977، ص 93

[29] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: **المقدمة**، (الفصل الثالث والعشرون): تحقبق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، لجنة البيان العربي، 1965، ص 164.

[30] إدغار موران: **النهج - إنسانية البشرية/هوية البشرية** ، ص 343

[31] أدونيس: **موسيقى الحوت الأزرق الهوية - الكتابة - العنف** - دار الآداب، ط1، 2002، ص 17

[32]Abou Selim, **L'identité culturelle, Relations interethniques et problèmes.. d'acculturation**, Paris: Anthropos 1986,p14

(33) ينظر، عبد العظيم الديب: **التبعية الثقافية، وسائلها ومظاهرها**، ضمن كتاب، **ندوة الثقافة العربية الواقع وآفاق المستقبل**، جامعة قطر، 1993، ص 338.

(34) ينظر، ناصيف اليازجي: **شرح ديوان المتنبي**، بيروت، دار صادر، المجلد الأول، د.ت، ص 385.

(35) فى محاضرة ألقاها بالمجمع الثقافي ضمن فعاليات "معرض أبوظبي الدولي للكتاب"ينظر ، http://www.alarabiya.net/

(36) عبد الخالق عبد الله: **العولمة ـ جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها**، عالم الفكر 28/2 أكتوبر، ديسمبر، 1999، ص 74.

(37) ينظر، الرابط: http://www.almosul.org

(38) نيكلاس لومان: **مدخل إلى نظرية الأنساق**، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ط1، 2010، ص 280

(39) فاروق شوشة: **إنقاذ اللغة.. إنقاذ الهوية**. جريدة الأهرام االعدد43532، 12 فراير 2006.

(40) صلاح عبد الصبور: **المجموعة الكاملة**، دار العودة، بيروت، ط1، 1972، ص 269.

(41) مالك بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط1، 1986، ص 88

(42) مالك بن نبي: **مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة(وآخر)، دار الفكر، ط 1 ، 1988، ص 217 .

(43) ابن خلدون: **المقدمة**، الفصل الرابع والعشرون، ص 165.

(44) Dominique Chevallier, **Les arabes du massage a l`histoire**, Edition Fayard, Paris 1995, p51

(45) روبين دونبار، وآخرون: **تطور التثقافة ـ رؤية في ضوء منهج البحوث المتداخلة ـ** ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005، ص 295.

(46) علي الطالقاني: **فى دائرة الاستهداف... اللغة العربية مخاوف من اندثارها**، الرابط: www.annabaa.org/

(47) المرجع السابق.

(48) ديفيد هارفى: **حالة ما بعد الحداثة ـ بحث فى أصول التغيير الثقافى**، ص 77

(49) عبد الكريم خليفة: **اللغة العربية والإبداع الفكري والعلمي فى العصر الحديث**، الرابط: www.arabicacademy.org.

(50) ينظر، السيد ياسين: **شبكة الحضارة المعرفية، من المجتمع الواقعي إلى العالم الافتراضي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2009، ص 294، 299.